العبادة

بين احتياج العبد واستغناء الرب جل وعلا

تأليف
مصطفى حسين عوض

تبصير
للنشر والتوزيع
تقريب التراث
والرد على الشبهات
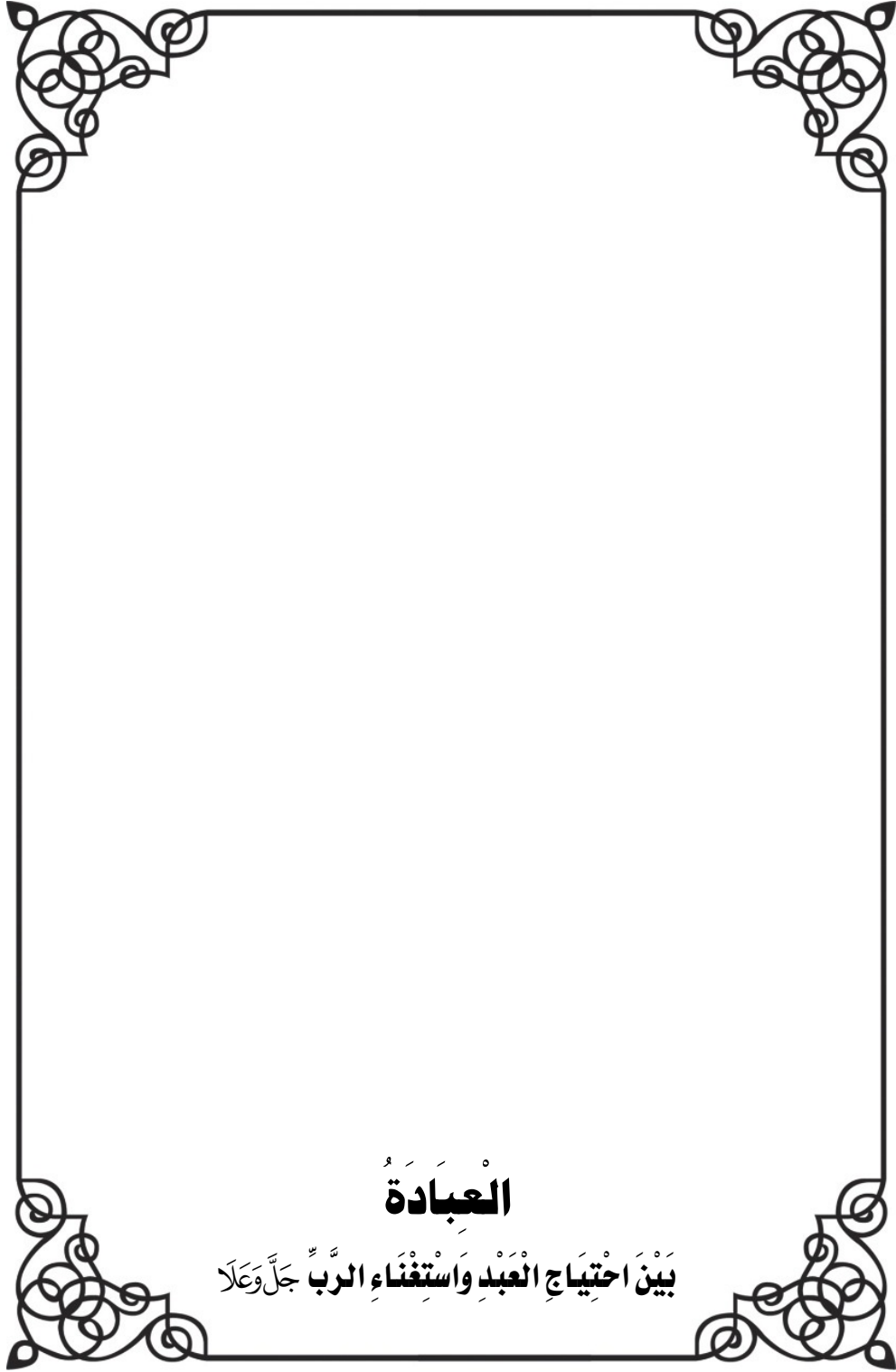
الْعِبَادَةُ

بَيْنَ احْتِيَاجِ الْعَبْدِ وَاسْتِغْنَاءِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا

1441هـ / 2020 م

اسم الكتاب: الْعِبَادَةُ بَيْنَ احْتِيَاجِ الْعَبْدِ وَاسْتِغْنَاءِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا

اسم المؤلف: مصطفى حسين عوض

الطبعة الثانية: 1441 هـ/ 2020 م

مقاس الكتاب: 17 × 24

رقم الإيداع: / 7843/ 2019م

الترقيم الدولي : 978-977-6713-06-2

العنوان: ٣ شارع مسجد الفرقان – القناطر الخيرية – القليوبية جمهورية مصر العربية

التليفون: 01019757010 – 01102260020

website: http://tbseir.com twitter: @tabseir Fb: @tbseir

Email: tabseir@gmail.com

تأليف

مُصْطَفَى حُسَيْنِ عَوَضٍ

تقريب التراث
والرد على الشبهات

إِنَّ اللهَ لمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ

وَلَا نَهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنهُ بُخْلًا بِهِ عَلَيْهِمْ

بَلْ أَمَرَهُمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ

وَنَهَاهُمْ عَمَّا فِيهِ فَسَادُهُمْ

فهَوَ سُبْحَانَهُ الغَنِيُّ الْحَكِيمُ

مُقَدِّمَةٌ

بِاسْمِ اللهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ، وَبَعْدُ:

فَفِي زَمَنٍ مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ يَحْتَاجُ الْمَرْءُ إِلَىٰ الْإِشَارَةِ إِلَىٰ الشَّمْسِ لِيَدُلَّ النَّاسَ عَلَيْهَا! فَقَدِ انْتَشَرَتِ الشُّبُهَاتُ حَتَّىٰ وَصَلَ الْمُشَكِّكُونَ إِلَىٰ التَّشْكِيكِ فِي اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَفِي الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ سُبْحَانَهُ! وَقَدْ كَانَ الشَّكُّ فِي اللهِ جَلَّ وَعَلَا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ الْأَوَائِلِ ضَرْبًا مِنَ الْجُنُونِ؛ إِذْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ الْخَالِقِ الرَّازِقِ الْمُدَبِّرِ، وَيُنَازِعُونَ فِي صَرْفِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِهِ مَعَ حُبِّهِمْ لَهُ، وَاعْتِرَافِهِمْ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ سُبْحَانَهُ، فَأَصْبَحْنَا الْيَوْمَ نُنَاقِشُ مَسَائِلَ مَا كُنَّا نَتَخَيَّلُ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ أَنْ يُثِيرَهَا مُشْرِكٌ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهَا مُسْلِمٌ!

وَمَعَ طَائِفَةٍ لَا تُوَقِّرُ كِتَابَ اللهِ وَلَا سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَلْ لَا تَضَعُ الْعَقْلَ فِي مَحَلِّهِ فَتَحْتَرِمَهُ، وَإِنَّمَا تَضَعُهُ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ فَتُهِينُهُ وَتُذِلُّهُ، وَتُورِدُهُ الْمَوَارِدَ الْمُهْلِكَاتِ، فَلَا يَدْرِي الْإِنْسَانُ كَيْفَ التَّعَامُلُ مَعَهُمْ؛ لِرَدِّهِمْ إِلَىٰ مَا يَنْبَغِي أَنْ

يَكُونُوا عَلَيْهِ.

فَلَا يَقْبَلُونَ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ إِلَّا مَا يُوَافِقُ هَوَاهُمْ، وَلَا مِنَ الْحَقَائِقِ الْمَادِّيَّةِ إِلَّا مَا يَظُنُّونَهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، وَيَطْلُبُونَ الْمُحَالَ عَقْلًا يُرِيدُونَ بِهِ - زَعَمُوا - أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ الْحَقِّ الْمُجَرَّدِ!

وَيَنْشُرُونَ شُبُهَاتِهِمْ بَيْنَ النَّاسِ؛ مُسْلِمِهِمْ وَغَيْرِ مُسْلِمِهِمْ، مَعَ تَرْكِيزِهِمُ الْأَكْبَرِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ إِذْ يُؤْلِمُهُمُ انْقِيَادُ الْمُسْلِمِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَتَصْدِيقُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُدَاهِنُونَ فِيهِ أَهْلَ الْأَدْيَانِ الْأُخْرَىٰ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَنْشُرُونَ شُبُهَاتِهِمْ عَلَىٰ الْجَمِيعِ، وَمِنْ ذَلِكَ شُبْهَةٌ يَنْشُرُونَهَا بَيْنَ النَّاسِ حَوْلَ عِبَادَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَتَسَاؤُلَاتٌ يُثِيرُونَهَا لِزَعْزَعَةِ إِيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ:

لِمَاذَا أَمَرَنَا اللهُ بِعِبَادَتِهِ؟

وَمَا الْعَائِدُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ؟

وَلِمَاذَا لَمْ يُدْخِلِ النَّاسَ جَمِيعًا الْجَنَّةَ مُتَغَاضِيًا عَنْ أَعْمَالِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟

لِمَاذَا يَطْلُبُ اللهُ الْعِبَادَةَ مِنَ الْبَشَرِ أَسَاسًا؟

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشُّبُهَاتِ الْمُتَهَافِتَاتِ.

فَشَرَعْتُ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ هَذِهِ الشُّبْهَةِ لَا لِأَهَمِّيَّتِهَا فِي ذَاتِهَا؛ إِذْ هِيَ شُبْهَةٌ

مُتَهَافِتَةٌ أُسِّسَتْ عَلَىٰ التَّنَاقُضاتِ وَالْمُغَالَطَاتِ، وَلَكِنْ مَا يَجْعَلُ لِلرَّدِّ أَهَمِّيَّةً هُوَ ابْتِعَادُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ، وَانْفِتَاحُهُمْ عَلَىٰ الْغَرْبِ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ تَنَاقُضَاتٍ؛ فَالْغَرْبُ النَّصْرَانِيُّ الْآنَ يُصَدِّرُ الْإِلْحَادَ أَكْثَرَ مِنَ الشَّرْقِ الْمُلْحِدِ!

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ يُقْبِلُونَ عَلَىٰ الْغَرْبِ؛ يَتَقَمَّمُونَ مَا يَجِدُونَهُ عِنْدَهُمْ، مُنْبَهِرِينَ بِالتَّقَدُّمِ وَإِمْكَانَاتِ الْقُوَّةِ، وَلَا يَعْرِفُونَ أَنَّ مَا يَتَقَمَّمُونَهُ لَمْ يَنْتَفِعِ الْغَرْبُ نَفْسُهُ بِهِ فِي تَقَدُّمِهِ وَقُوَّتِهِ، وَلَكِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يَبْحَثُونَ عَنْ أَسْبَابِ الضَّعْفِ عِنْدَ الْأَقْوِيَاءِ فَيَتَلَبَّسُونَ بِهَا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ؛ لِذَلِكَ رَاجَتْ عَلَيْهِمْ أَمْثَالُ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ الْمُتَهَافِتَةِ.

فَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يُعِينَنِي عَلَىٰ اسْتِيفَاءِ الرَّدِّ، وَبَيَانِ مَا فِي هَذِهِ الشُّبْهَةِ مِنْ مُغَالَطَاتٍ، وَأَنْ يَتَقَبَّلَ ذَلِكَ عِنْدَهُ. آمِينَ.

وَلِأَنَّ هَذَا الْكِتَابَ يَتَكَلَّمُ عَنِ الْعِبَادَةِ، وَهِيَ أَمْرٌ عَظِيمٌ فِي دِينِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَلِأَنَّ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ الْمُتَهَافِتَةَ لَا تَحْتَاجُ كَثِيرَ جُهْدٍ وَبَيَانٍ؛ لِبَيَانِ زَيْفِهَا؛ انْتَهَزْتُ الْفُرْصَةَ، وَوَضَعْتُ فِي الْكِتَابِ مَزِيدَ بَيَانٍ لِحَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ وَمَعْنَاهَا؛ لِيَخْرُجَ الْقَارِئُ مُنْتَفِعًا بِذَلِكَ، مُطَبِّقًا لَهُ فِي حَيَاتِهِ؛ لِيَذُوقَ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ بَعْدَمَا عَرَفَ مَعْنَاهَا، وَقَرَأَ عَنْ حَقِيقَتِهَا. وَقَدْ أَخْرَجْتُ الْكِتَابَ

مُتَعَجِّلًا؛ تَلْبِيَةً لِرَغْبَةِ «**مَرْكَزِ تَبْصِيرٍ**»، وَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ الْقَبُولَ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ مَنْ قَرَأَهُ؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ... آمِينَ.

وَكَتَبَ

مُصْطَفَى حُسَيْنِ عَوَضٍ

عَفَا اللهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ

❀❀❀

مَعْنَى الْعِبَادَةِ

قَبْلَ الْكَلَامِ عَنْ أَمْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا بِالْعِبَادَةِ، وَعَنْ وُجُوبِ امْتِثَالِ أَمْرِهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَىٰ السَّوَاءِ؛ يَنْبَغِي أَنْ نَعْرِفَ مَا هِيَ الْعِبَادَةُ أَوَّلًا.

وَهَذِهِ قُطُوفٌ مِنْ كَلَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ حَوْلَ الْعِبَادَةِ وَمَعْنَاهَا وَحَقِيقَتِهَا، اخْتَرْتُهَا مِنْ رِسَالَتِهِ الشَّهِيرَةِ «الْعُبُودِيَّةِ»، وَعَنْوَنْتُ عَلَىٰ فِقْرَاتِهَا؛ تَسْهِيلًا لِلْقَارِئِ، وَبَيَّنْتُ بَعْضَ أَلْفَاظِهَا بَيْنَ قَوْسَيْنِ؛ لَعَلَّ اللهَ يَنْفَعُ بِهَا مَنْ يَقْرَؤُهَا.

۞ [مَعْنَى الْعِبَادَةِ:]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. «الْعِبَادَةُ»: **هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ: مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ.**

۞ [ثُمَّ ذَكَرَ أَمْثِلَةً عَلَى الْعِبَادَةِ:]

فَالصَّلَاةُ، وَالزَّكَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالْحَجُّ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ

عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْإِحْسَانُ إِلَىٰ الْجَارِ وَالْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْمَمْلُوكِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ، وَالدُّعَاءُ وَالذِّكْرُ وَالْقِرَاءَةُ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ؛ مِنَ الْعِبَادَةِ.

وَكَذَلِكَ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَخَشْيَةُ اللهِ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ، وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ؛ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ، وَالْخَوْفُ مِنْ عَذَابِهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ؛ هِيَ مِنَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ.

۞ [الْعِبَادَةُ هِيَ الْغَايَةُ الْمَحْبُوبَةُ لَهُ سُبْحَانَهُ:]

وَذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ هِيَ الْغَايَةُ الْمَحْبُوبَةُ لَهُ وَالْمَرْضِيَّةُ لَهُ، الَّتِي خَلَقَ الْخَلْقَ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦].

وَبِهَا أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ؛ كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٥٩]، وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَغَيْرُهُمْ لِقَوْمِهِمْ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النَّحْلُ: ٣٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٩٢]، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٥١ -٥٢].

وَجَعَلَ ذَلِكَ لَازِمًا لِرَسُولِهِ إِلَىٰ الْمَوْتِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الْحِجْرُ: ٩٩].

❁ [وَصْفُ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ بِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُ وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ:]

وَبِذَلِكَ وَصَفَ مَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ١٩، ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٢٠٦].

❁ [ذَمُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنِ الْعِبَادَةِ:]

وَذَمَّ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غَافِرٌ: ٦٠].

۞ [وَصْفُ الصَّفْوَةِ بِأَفْضَلِ وَصْفٍ وَهُوَ الْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ:]

وَنَعَتَ صَفْوَةَ خَلْقِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لَهُ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإِنْسَانُ: ٦]، وَقَالَ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفُرْقَانُ: ٦٣] الْآيَاتُ.

۞ [عِصْمَةُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ مِنْ أَنْ يُغْوِيَهُمُ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ:]

وَلَمَّا قَالَ الشَّيْطَانُ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الْحِجْرُ: ٣٩، ٤٠] قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الْحِجْرُ: ٤٢].

۞ [وَصْفُ الْمَلَائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالنَّهْيُ عَنْ وَصْفِهِمْ بِمَا هُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ:]

وَقَالَ فِي وَصْفِ الْمَلَائِكَةِ بِذَلِكَ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٦-٢٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا

لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مَرْيَمُ: ٨٨-٩٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنِ الْمَسِيحِ - الَّذِي ادُّعِيَتْ فِيهِ الْإِلَهِيَّةُ -: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٥٩].

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ».

۞ [وَصْفُ اللهِ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْعُبُودِيَّةِ:]

وَقَدْ نَعَتَهُ اللهُ «بِالْعُبُودِيَّةِ» فِي أَكْمَلِ أَحْوَالِهِ؛ فَقَالَ فِي الْإِسْرَاءِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١].

وَقَالَ فِي الْإِيحَاءِ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النَّجْمُ: ١٠]، وَقَالَ فِي الدَّعْوَةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الْجِنُّ: ١٩]، وَقَالَ فِي التَّحَدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢٣].

۞ [الدِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ:]

فَالدِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ جِبْرِيلَ لَمَّا جَاءَ

إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ وَسَأَلَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ؛ قَالَ: «**أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**».

قَالَ: فَمَا الْإِيمَانُ؟

قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

قَالَ: فَمَا الْإِحْسَانُ؟

قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**».

فَجَعَلَ هَذَا كُلَّهُ مِنَ الدِّينِ.

وَ«الدِّينُ» يَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ.

يُقَالُ: دِنْتُهُ فَدَانَ؛ أَيْ: ذَلَّلْتُهُ فَذَلَّ، وَيُقَالُ: يَدِينُ اللهَ وَيَدِينُ لِلَّهِ؛ أَيْ: يَعْبُدُ اللهَ وَيُطِيعُهُ وَيَخْضَعُ لَهُ؛ فَدِينُ اللهِ: عِبَادَتُهُ وَطَاعَتُهُ وَالْخُضُوعُ لَهُ.

۞ [الْعِبَادَةُ أَصْلٌ يَدْخُلُ فِي مَعْنَاهَا الذُّلُّ لِلَّهِ :]

وَ«الْعِبَادَةُ» أَصْلُ مَعْنَاهَا الذُّلُّ أَيْضًا.

يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ؛ إِذَا كَانَ مُذَلَّلًا قَدْ وَطِئَتْهُ الْأَقْدَامُ.

لَكِنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الذُّلِّ وَمَعْنَىٰ الْحُبِّ؛ فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ لِلَّهِ بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ...» [**إِلَىٰ أَنْ قَالَ - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ -:**].

۞ [فَضْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى خَلْقِهِ :]

«فَهُوَ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ، وَمُحْيِيهِمْ وَمُمِيتُهُمْ، وَمُقَلِّبُ قُلُوبِهِمْ، وَمُصَرِّفُ أُمُورِهِمْ، لَا رَبَّ لَهُمْ غَيْرُهُ، وَلَا مَالِكَ لَهُمْ سِوَاهُ، وَلَا خَالِقَ إِلَّا هُوَ.

۞ [جَمِيعُ الْخَلْقِ عُبَيْدٌ لَهُ سواءٌ اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ أَوْ لاَ :]

سَوَاءٌ اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرُوهُ، وَسَوَاءٌ عَلِمُوا ذَلِكَ أَوْ جَهِلُوهُ؛ لَكِنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ عَرَفُوا ذَلِكَ وَاعْتَرَفُوا بِهِ؛ بِخِلَافِ مَنْ كَانَ جَاهِلًا بِذَلِكَ، أَوْ جَاحِدًا لَهُ، مُسْتَكْبِرًا عَلَىٰ رَبِّهِ، لَا يُقِرُّ وَلَا يَخْضَعُ لَهُ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ. فَالْمَعْرِفَةُ بِالْحَقِّ إِذَا كَانَتْ مَعَ الِاسْتِكْبَارِ عَنْ قَبُولِهِ وَالْجَحْدِ لَهُ؛ كَانَ عَذَابًا عَلَىٰ صَاحِبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النَّمْلُ: ١٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا

مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٤٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

[الْأَنْعَامُ: ٣٣].

فَإِنِ اعْتَرَفَ الْعَبْدُ أَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ؛ عَرَفَ الْعُبُودِيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ، وَهَذَا الْعَبْدُ يَسْأَلُ رَبَّهُ فَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ.

۞ [الْعَبْدُ قَدْ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَقَدْ يَعْصِيهِ وَيُخَالِفُ أَوَامِرَهُ:]

لَكِنْ قَدْ يُطِيعُ أَمْرَهُ؛ وَقَدْ يَعْصِيهِ، وَقَدْ يَعْبُدُهُ مَعَ ذَلِكَ، وَقَدْ يَعْبُدُ الشَّيْطَانَ وَالْأَصْنَامَ.

۞ [الْخَلْقُ جَمِيعًا عَبِيدٌ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ حَتَّى يُقِرُّوا بِذَلِكَ وَيَخْضَعُوا لِلَّهِ مُمْتَثِلِينَ أَوَامِرَهُ وَمُنْتَهِينَ عَنْ نَوَاهِيهِ سُبْحَانَهُ:]

وَمِثْلُ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ [مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا حَقِيقَةً كَوْنِيَّةً لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ الْخُرُوجَ عَنْهَا؛ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مَمْلُوكٌ] لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَلَا يَصِيرُ بِهَا الرَّجُلُ مُؤْمِنًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يُوسُفُ: ١٠٦].

فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ،

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لُقْمَانُ: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٨٤، ٨٥]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٨٩].

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي الْحَقِيقَةِ وَيَشْهَدُهَا يَشْهَدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، وَهِيَ «الْحَقِيقَةُ الْكَوْنِيَّةُ» الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا وَفِي شُهُودِهَا وَمَعْرِفَتِهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَإِبْلِيسُ مُعْتَرِفٌ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ؛ وَأَهْلُ النَّارِ.

❁ [إِبْلِيسُ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ عَبْدٌ مَمْلُوكٌ، لَكِنَّهُ لَا يَقُومُ بِمُقْتَضَى هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ:]

قَالَ إِبْلِيسُ: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [ص: ٧٩]، وَقَالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الْحِجْرُ: ٣٩].

وَقَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وَقَالَ: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٦٢].

وَأَمْثَالَ هَذَا مِنَ الْخِطَابِ الَّذِي يُقِرُّ فِيهِ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ وَخَالِقُ غَيْرِهِ.

❁ [أَهْلُ النَّارِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ وَمَالِكُهُمْ:]

وَكَذَلِكَ أَهْلُ النَّارِ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾

[الْمُؤْمِنُونَ: ١٠٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٣٠].

۞ [كَوْنُكَ تَعْرِفُ أَنَّكَ مَخْلُوقٌ مَمْلُوكٌ؛ فَهَذَا لَا يُعَدُّ قِيَامًا بِمَا يَجِبُ عَلَيْكَ حَتَّى تَصْرِفَ لِلَّهِ وَحْدَهُ الْعِبَادَةَ وَتَلْتَزِمَ بِأَوَامِرِهِ وَتَبْتَعِدَ عَنْ نَوَاهِيهِ:]

فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَعِنْدَ شُهُودِهَا، وَلَمْ يَقُمْ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِإِلَهِيَّتِهِ وَطَاعَةِ أَمْرِهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ؛ كَانَ مِنْ جِنْسِ إِبْلِيسَ وَأَهْلِ النَّارِ.

۞ [الْعُبُودِيَّةُ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا حَقِيقَةً كَوْنِيَّةً وَكَوْنُهَا حَقِيقَةً وَمَطْلَبًا دِينِيًّا شَرْعِيًّا:]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: وَأَمَّا «الْعَبْدُ» بِمَعْنَىٰ الْمُعَبَّدِ، سَوَاءٌ أَقَرَّ بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرَهُ: فَتِلْكَ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ.

وَبِالْفَرْقِ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ يُعْرَفُ الْفَرْقُ بَيْنَ «الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ» الدَّاخِلَةِ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَدِينِهِ وَأَمْرِهِ الشَّرْعِيِّ، الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا، وَيُوَالِي أَهْلَهَا وَيُكْرِمُهُمْ بِجَنَّتِهِ، وَبَيْنَ «الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ» الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، الَّتِي مَنِ اكْتَفَىٰ بِهَا وَلَمْ يَتَّبِعِ الْحَقَائِقَ الدِّينِيَّةَ؛ كَانَ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَالْكَافِرِينَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَمَنِ اكْتَفَىٰ بِهَا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ دُونَ بَعْضٍ، أَوْ فِي مَقَامٍ أَوْ حَالٍ؛ نَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ وَوِلَايَتِهِ لِلَّهِ بِحَسَبِ مَا نَقَصَ مِنَ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ».

۞ [الْفَرْقُ بَيْنَ مَنْ قَامَ بِالْعِبَادَةِ كَحَقِيقَةٍ كَوْنِيَّةٍ وَدِينِيَّةٍ، وَبَيْنَ مَنْ أَهْمَلَهَا كَحَقِيقَةٍ دِينِيَّةٍ وَكَوْنِيَّةٍ أَوْ أَهْمَلَ الدِّينِيَّةَ فَقَطْ:]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [الزُّمَرُ: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [النَّحْلُ: ٧٥، ٧٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الْحَشْرُ: ٢٠].

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ مِمَّا يُفَرِّقُ اللهُ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَأَهْلِ الطَّاعَةِ وَأَهْلِ الْمَعْصِيَةِ، وَأَهْلِ الْبِرِّ وَأَهْلِ الْفُجُورِ، وَأَهْلِ الْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، وَأَهْلِ الْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَأَهْلِ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ. فَمَنْ شَهِدَ «الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ» دُونَ «الدِّينِيَّةِ» سَوَّىٰ بَيْنَ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهَا غَايَةَ التَّفْرِيقِ،

حَتَّىٰ يَئُولَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَىٰ أَنْ يُسَوِّيَ اللهَ بِالْأَصْنَامِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٩٧، ٩٨].

بَلْ قَدْ آلَ الْأَمْرُ بِهَؤُلَاءِ إِلَىٰ أَنْ سَوَّوُا اللهَ بِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَجَعَلُوا مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ حَقًّا لِكُلِّ مَوْجُودٍ؛ إِذْ جَعَلُوهُ هُوَ وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ بِرَبِّ الْعِبَادِ. وَهَؤُلَاءِ يَصِلُ بِهِمُ الْكُفْرُ إِلَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ عِبَادٌ؛ لَا بِمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ مُعَبَّدُونَ، وَلَا بِمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ عَابِدُونَ.

۞ [الْعِبَادَةُ أَلاَّ يُعْبَدَ إِلاَّ اللهُ، وَأَلاَّ يُعبَدَ اللهُ إِلاَّ بِمَا شَرَعَهُ اللهُ:]

وَإِنَّمَا يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْهَا بِمُلَازَمَةِ أَمْرِ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ كَمَا قَالَ الزُّهْرِيُّ: كَانَ مَنْ مَضَىٰ مِنْ سَلَفِنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ. وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ - كَمَا قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ - مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ؛ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ.

وَالْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ وَالِاسْتِقَامَةُ وَلُزُومُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ؛ مَقْصُودُهَا وَاحِدٌ، **وَلَهَا أَصْلَانِ:**

أَحَدُهُمَا: «أَلَّا يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ».

وَالثَّانِي: «**أَنْ يُعْبَدَ بِمَا أَمَرَ وَشَرَعَ، لَا بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْبِدَعِ**».

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [الْكَهْفُ: ١١٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٢٥].

فَـ«**الْعَمَلُ الصَّالِحُ**»: هُوَ الْإِحْسَانُ، وَهُوَ فِعْلُ الْحَسَنَاتِ. وَ«الْحَسَنَاتُ»: هِيَ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوِ اسْتِحْبَابٍ.

فَمَا كَانَ مِنَ الْبِدَعِ فِي الدِّينِ، الَّتِي لَيْسَتْ مَشْرُوعَةً؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّهَا وَلَا رَسُولُهُ ﷺ؛ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَلَا مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا أَنَّ مَنْ يَعْمَلُ مَا لَا يَجُوزُ كَالْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ؛ لَيْسَ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَلَا مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ **فَهُوَ إِخْلَاصُ الدِّينِ لِلَّهِ وَحْدَهُ**، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا».

وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُودٌ: ٧]؛ قَالَ: **أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ.** قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيٍّ مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: **إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا؛ لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا؛ لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا.** وَالْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ السُّنَّةِ».

❁ [الْعَبْدُ يَقْتَرِبُ مِنَ الْكَمَالِ إِذَا كَانَتْ عِبَادَتُهُ أَكْمَلَ:]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا، فَكَمَالُ الْمَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَحْقِيقًا لِلْعُبُودِيَّةِ؛ ازْدَادَ كَمَالُهُ وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَخْرُجُ عَنِ الْعُبُودِيَّةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، أَوْ أَنَّ الْخُرُوجَ عَنْهَا أَكْمَلُ؛ فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْخَلْقِ وَأَضَلِّهِمْ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٦، ٢٧]».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا وَنَحْوُهُ - مِمَّا فِيهِ وَصْفُ أَكَابِرِ الْمَخْلُوقَاتِ بِالْعِبَادَةِ، وَذَمُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ - مُتَعَدِّدٌ فِي الْقُرْآنِ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ بِذَلِكَ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٥]».

۞ [اللهُ يُنْجِّي عِبادَهُ مِنْ غَوايَةِ الشَّيَاطِينِ، وَيُوَفِّقُهُمْ لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ:]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ عِبادَهُ هُمُ الَّذِينَ يَنْجُونَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحِجْرُ: ٣٩، ٤٠]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الْحِجْرُ: ٤٢]، وَقَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وَقَالَ فِي حَقِّ يُوسُفَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُفُ: ٢٤]، وَقَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾ [الصَّافَّاتُ: ١٥٩، ١٦٠]، وَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النَّحْلُ: ٩٩، ١٠٠].

وَبِهَا نَعَتَ كُلَّ مَنِ اصْطَفَىٰ مِنْ خَلْقِهِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦].

۞ [الْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ، وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ:]

وَكُلَّمَا قَوِيَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَرَجَائِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ

وَدَفْعِ ضَرُورَتِهِ؛ قَوِيَتْ عُبُودِيَّتُهُ لَهُ وَحُرِّيَّتُهُ مِمَّا سِوَاهُ؛ فَكَمَا أَنَّ طَمَعَهُ فِي الْمَخْلُوقِ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ لَهُ، فَيَأْسُهُ مِنْهُ يُوجِبُ غِنَىٰ قَلْبِهِ عَنْهُ.

كَمَا قِيلَ: اسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظِيرَهُ، وَأَفْضِلْ عَلَىٰ مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ، وَاحْتَجْ إِلَىٰ مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسِيرَهُ.

فَكَذَلِكَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي رَبِّهِ وَرَجَاؤُهُ لَهُ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ لَهُ وَإِعْرَاضَ قَلْبِهِ عَنِ الطَّلَبِ مِنْ غَيْرِ اللهِ، وَ[إِعْرَاضُهُ عَنِ] الرَّجَاءِ لَهُ [سُبْحَانَهُ] يُوجِبُ انْصِرَافَ قَلْبِهِ عَنِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ، لَا سِيَّمَا مَنْ كَانَ يَرْجُو الْمَخْلُوقَ وَلَا يَرْجُو الْخَالِقَ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ قَلْبُهُ مُعْتَمِدًا إِمَّا عَلَىٰ رِئَاسَتِهِ وَجُنُودِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَمَمَالِيكِهِ، وَإِمَّا عَلَىٰ أَهْلِهِ وَأَصْدِقَائِهِ، وَإِمَّا عَلَىٰ أَمْوَالِهِ وَذَخَائِرِهِ، وَإِمَّا عَلَىٰ سَادَاتِهِ وَكُبَرَائِهِ؛ كَمَالِكِهِ وَمَلِكِهِ، وَشَيْخِهِ وَمَخْدُومِهِ، وَغَيْرِهِمْ؛ مِمَّنْ هُوَ قَدْ مَاتَ أَوْ يَمُوتُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الْفُرْقَانُ: ٥٨].

وَكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمَخْلُوقَاتِ أَنْ يَنْصُرُوهُ أَوْ يَرْزُقُوهُ، أَوْ أَنْ يَهْدُوهُ؛ خَضَعَ قَلْبُهُ لَهُمْ، وَصَارَ فِيهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ

أَمِيرًا لَهُمْ مُدَبِّرًا لَهُمْ مُتَصَرِّفًا بِهِمْ.

فَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ إِلَىٰ الْحَقَائِقِ لَا إِلَىٰ الظَّوَاهِرِ؛ فَالرَّجُلُ إِذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِامْرَأَةٍ وَلَوْ كَانَتْ مُبَاحَةً لَهُ؛ يَبْقَىٰ قَلْبُهُ أَسِيرًا لَهَا، تَحْكُمُ فِيهِ وَتَتَصَرَّفُ بِمَا تُرِيدُ، وَهُوَ فِي الظَّاهِرِ سَيِّدُهَا؛ لِأَنَّهُ زَوْجُهَا، وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ أَسِيرُهَا وَمَمْلُوكُهَا، لَا سِيَّمَا إِذَا دَرَتْ [أَي: عَلِمَتْ] بِفَقْرِهِ إِلَيْهَا، وَعِشْقِهِ لَهَا، وَأَنَّهُ لَا يَعْتَاضُ [أَيْ: لَا يَتَعَوَّضُ] عَنْهَا بِغَيْرِهَا؛ فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تَحْكُمُ فِيهِ بِحُكْمِ السَّيِّدِ الْقَاهِرِ الظَّالِمِ فِي عَبْدِهِ الْمَقْهُورِ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْخَلَاصَ مِنْهُ، بَلْ أَعْظَمُ.

فَإِنَّ أَسْرَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ أَسْرِ الْبَدَنِ، وَاسْتِعْبَادَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنَ اسْتِعْبَادِ الْبَدَنِ؛ فَإِنَّ مَنْ اسْتُعْبِدَ بَدَنُهُ وَاسْتُرِقَّ لَا يُبَالِي إِذَا كَانَ قَلْبُهُ مُسْتَرِيحًا مِنْ ذَلِكَ مُطْمَئِنًّا، بَلْ يُمْكِنُهُ الِاحْتِيَالُ فِي الْخَلَاصِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَلْبُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ رَقِيقًا مُسْتَعْبَدًا مُتَيَّمًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهَذَا هُوَ الذُّلُّ وَالْأَسْرُ الْمَحْضُ، وَالْعُبُودِيَّةُ لِمَا اسْتَعْبَدَ الْقَلْبَ.

۞ [عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَأَسْرُهُ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ:]

وَعُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَأَسْرُهُ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَوْ أَسَرَهُ كَافِرٌ، أَوِ اسْتَرَقَّهُ فَاجِرٌ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ

قَائِمًا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَمَنِ اسْتُعْبِدَ بِحَقٍّ إِذَا أَدَّىٰ حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ لَهُ أَجْرَانِ، وَلَوْ أُكْرِهَ عَلَىٰ التَّكَلُّمِ بِالْكُفْرِ فَتكَلَّمَ بِهِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ؛ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا مَنِ اسْتُعْبِدَ قَلْبُهُ فَصَارَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهَذَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَلِكَ النَّاسِ. فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ، كَمَا أَنَّ الْغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ الْغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَإِنَّمَا الْغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ**»».

۞ [الْعُبُودِيَّةُ الْحَقَّةُ :]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَإِنَّمَا عَبْدُ اللهِ مَنْ** [أَيِ: الَّذِي] **يُرْضِيهِ مَا يُرْضِي اللهَ، وَيُسْخِطُهُ مَا يُسْخِطُ اللهَ؛ وَيُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيُبْغِضُ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَ اللهِ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ.**

كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ أَحَبَّ للهِ وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَىٰ للهِ وَمَنَعَ للهِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»، وَقَالَ: «**أَوْثَقُ عُرَىٰ الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ**». وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ**

كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ».

فَهَذَا وَافَقَ رَبَّهُ فِيمَا يُحِبُّهُ وَمَا يَكْرَهُهُ؛ فَكَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَحَبَّ الْمَخْلُوقَ لِلَّهِ لَا لِغَرَضٍ آخَرَ؛ فَكَانَ هَذَا مِنْ تَمَامِ حُبِّهِ لِلَّهِ؛ **فَإِنَّ مَحَبَّةَ مَحْبُوبِ الْمَحْبُوبِ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ الْمَحْبُوبِ.**

فَإِذَا أَحَبَّ أَنْبِيَاءَ اللهِ وَأَوْلِيَاءَ اللهِ لِأَجْلِ قِيَامِهِمْ بِمَحْبُوبَاتِ الْحَقِّ لَا لِشَيْءٍ آخَرَ؛ فَقَدْ أَحَبَّهُمْ لِلَّهِ لَا لِغَيْرِهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٥٤]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ٣١]؛ فَإِنَّ الرَّسُولَ يَأْمُرُ بِمَا يُحِبُّ اللهُ، وَيَنْهَىٰ عَمَّا يُبْغِضُهُ اللهُ، وَيَفْعَلُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَيُخْبِرُ بِمَا يُحِبُّ اللهُ التَّصْدِيقَ بِهِ.

فَمَنْ كَانَ مُحِبًّا لِلَّهِ؛ لَزِمَ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ فَيُصَدِّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَيُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَيَتَأَسَّىٰ بِهِ فِيمَا فَعَلَ. وَمَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَدْ فَعَلَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ؛ فَيُحِبُّهُ اللهُ. **فَحَقِيقَةُ الْمَحَبَّةِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِمُوَالَاةِ الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ مُوَافَقَتُهُ فِي حُبِّ مَا يُحِبُّ وَبُغْضِ مَا**

يُبْغِضُ، وَاللهُ يُحِبُّ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَىٰ، وَيُبْغِضُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ».

❁ [الْإِنْسَانُ فَقِيرٌ فَقْرًا ذَاتِيًّا إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا:]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْقَلْبُ حُبًّا لِلَّهِ؛ ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً، وَكُلَّمَا ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً؛ ازْدَادَ لَهُ حُبًّا، وَحُرِّيَّةً عَمَّا سِوَاهُ.

وَالْقَلْبُ فَقِيرٌ بِالذَّاتِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

مِنْ جِهَةِ الْعِبَادَةِ؛ وَهِيَ الْعِلَّةُ الْغَائِيَّةُ.

وَمِنْ جِهَةِ الِاسْتِعَانَةِ وَالتَّوَكُّلِ؛ وَهِيَ الْعِلَّةُ الْفَاعِلِيَّةُ.

فَالْقَلْبُ لَا يَصْلُحُ وَلَا يُفْلِحُ وَلَا يَلْتَذُّ وَلَا يُسَرُّ، وَلَا يَطِيبُ وَلَا يَسْكُنُ وَلَا يَطْمَئِنُّ؛ إِلَّا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحُبِّهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ.

وَلَوْ حَصَلَ لَهُ كُلُّ مَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ؛ لَمْ يَطْمَئِنَّ وَلَمْ يَسْكُنْ؛ إِذْ فِيهِ فَقْرٌ ذَاتِيٌّ إِلَىٰ رَبِّهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُ وَمَحْبُوبُهُ وَمَطْلُوبُهُ، وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ الْفَرَحُ وَالسُّرُورُ وَاللَّذَّةُ وَالنِّعْمَةُ وَالسُّكُونُ وَالطُّمَأْنِينَةُ».

❁ [حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ فِي الِاسْتِسْلَامِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ:]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي أَرْسَلَ

بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ؛ وَهُوَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ لِلَّهِ لَا لِغَيْرِهِ؛ فَالْمُسْتَسْلِمُ لَهُ وَلِغَيْرِهِ مُشْرِكٌ، وَالْمُمْتَنِعُ عَنْ الِاسْتِسْلَامِ لَهُ مُسْتَكْبِرٌ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، كَمَا أَنَّ النَّارَ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ.

فَجَعَلَ الْكِبْرَ مُقَابِلًا لِلْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ الْكِبْرَ يُنَافِي حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ: الْعَظَمَةُ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي؛ فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**». فَالْعَظَمَةُ وَالْكِبْرِيَاءُ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْكِبْرِيَاءُ أَعْلَىٰ مِنَ الْعَظَمَةِ؛ وَلِهَذَا جَعَلَهَا بِمَنْزِلَةِ الرِّدَاءِ كَمَا جَعَلَ الْعَظَمَةَ بِمَنْزِلَةِ الْإِزَارِ».

۞ [بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ تَكُونُ الْعُبُودِيَّةُ الْحَقَّةُ :]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَالَ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ [أَيْ: يَصِيرُ خَارِجِيًّا]، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ».

۞ [**دِينُ الْحَقِّ هُوَ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ بِإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَبِأَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:**]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّمَا دِينُ الْحَقِّ هُوَ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ بِكُلِّ وَجْهٍ، وَهُوَ تَحْقِيقُ مَحَبَّةِ اللهِ بِكُلِّ دَرَجَةٍ، وَبِقَدْرِ تَكْمِيلِ الْعُبُودِيَّةِ تَكْمُلُ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ وَتَكْمُلُ مَحَبَّةُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ، وَبِقَدْرِ نَقْصِ هَذَا يَكُونُ نَقْصُ هَذَا.

وَكُلَّمَا كَانَ فِي الْقَلْبِ حُبٌّ لِغَيْرِ اللهِ؛ كَانَتْ فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِغَيْرِ اللهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَكُلَّمَا كَانَ فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِغَيْرِ اللهِ؛ كَانَ فِيهِ حُبٌّ لِغَيْرِ اللهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَكُلُّ مَحَبَّةٍ لَا تَكُونُ لِلَّهِ فَهِيَ بَاطِلَةٌ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ.

فَالدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ، وَلَا يَكُونُ لِلَّهِ إِلَّا مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ وَهُوَ الْمَشْرُوعُ.

فَكُلُّ عَمَلٍ أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ اللهِ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُوَافِقُ شَرْعَ اللهِ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ؛ **بَلْ لَا يَكُونُ لِلَّهِ إِلَّا مَا جَمَعَ الْوَصْفَيْنِ:**

أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِمَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ؛ وَهُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ.

كَمَا قَالَ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

[الْكَهْفُ: ١١٠]؛ فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَهُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ، وَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١١٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا؛ فَهُوَ رَدٌّ»، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»**.

وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ، وَبِحَسَبِ تَحْقِيقِهِ يَكُونُ تَحْقِيقُ الدِّينِ، وَبِهِ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَإِلَيْهِ دَعَا الرَّسُولُ وَعَلَيْهِ جَاهَدَ، وَبِهِ أَمَرَ وَفِيهِ رَغَّبَ، وَهُوَ قُطْبُ الدِّينِ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ رَحَاهُ».

۞ [مَنْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ انْخَلَعَ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ:]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَكَثِيرًا مَا يُخَالِطُ النُّفُوسَ مِنَ الشَّهَوَاتِ الْخَفِيَّةِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْهَا تَحْقِيقَ مَحَبَّتِهَا لِلَّهِ وَعُبُودِيَّتِهَا لَهُ، وَإِخْلَاصِ دِينِهَا لَهُ؛ كَمَا قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ: «يَا بَقَايَا الْعَرَبِ! إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ»، قِيلَ لِأَبِي دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيِّ: وَمَا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ؟ قَالَ:

حُبُّ الرِّئَاسَةِ. وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَىٰ الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ الْحِرْصَ عَلَىٰ الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي فَسَادِ الدِّينِ لَا يَنْقُصُ عَنْ فَسَادِ الذِّئْبَيْنِ الْجَائِعَيْنِ لِزَرِيبَةِ الْغَنَمِ، وَذَلِكَ بَيِّنٌ.

فَإِنَّ الدِّينَ السَّلِيمَ لَا يَكُونُ فِيهِ هَذَا الْحِرْصُ؛ **وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا ذَاقَ حَلَاوَةَ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ؛ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ حَتَّىٰ يُقَدِّمَهُ عَلَيْهِ.**

وَبِذَلِكَ يُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ السُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُفَ: ٢٤]؛ فَإِنَّ الْمُخْلِصَ لِلَّهِ ذَاقَ مِنْ حَلَاوَةِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ مَا يَمْنَعُهُ عَنْ عُبُودِيَّتِهِ لِغَيْرِهِ، وَمِنْ حَلَاوَةِ مَحَبَّتِهِ لِلَّهِ مَا يَمْنَعُهُ عَنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ».

❁ [وَمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يُحْيِي اللَّهُ لَهُ قَلْبَهُ وَيُقْبِلُ بِهِ عَلَيْهِ:]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مُخْلِصًا لَهُ؛ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ، فَيُحْيِي قَلْبَهُ، وَاجْتَذَبَهُ إِلَيْهِ؛ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُ مَا يُضَادُّ ذَلِكَ مِنَ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، وَيَخَافُ مِنْ حُصُولِ ضِدِّ ذَلِكَ.

۞ [**وَمَنْ لَمْ يُخْلِصْ لِلَّهِ وَيُقْبِلْ عَلَيْهِ تَخَطَّفَتْهُ الشَّهَوَاتُ وَالأَهْوَاءُ؛ فَصَارَ عَبْدًا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ:**]

بِخِلَافِ الْقَلْبِ الَّذِي لَمْ يُخْلِصْ لِلَّهِ؛ فَإِنَّهُ فِي طَلَبٍ وَإِرَادَةٍ وَحُبٍّ مُطْلَقٍ، فَيَهْوَىٰ مَا يَسْنَحُ لَهُ وَيَتَشَبَّثُ بِمَا يَهْوَاهُ، كَالْغُصْنِ أَيُّ نَسِيمٍ مَرَّ بِعِطْفِهِ أَمَالَهُ.

فَتَارَةً تَجْتَذِبُهُ الصُّوَرُ الْمُحَرَّمَةُ وَغَيْرُ الْمُحَرَّمَةِ؛ فَيَبْقَىٰ أَسِيرًا عَبْدًا لِمَنْ لَوِ اتَّخَذَهُ هُوَ عَبْدًا لَهُ؛ لَكَانَ ذَلِكَ عَيْبًا وَنَقْصًا وَذَمًّا. وَتَارَةً يَجْتَذِبُهُ الشَّرَفُ وَالرِّئَاسَةُ فَتُرْضِيهِ الْكَلِمَةُ وَتُغْضِبُهُ الْكَلِمَةُ، وَيَسْتَعْبِدُهُ مَنْ يُثْنِي عَلَيْهِ وَلَوْ بِالْبَاطِلِ، وَيُعَادِي مَنْ يَذُمُّهُ وَلَوْ بِالْحَقِّ.

وَتَارَةً يَسْتَعْبِدُهُ الدِّرْهَمُ وَالدِّينَارُ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَسْتَعْبِدُ الْقُلُوبَ، وَالْقُلُوبُ تَهْوَاهَا؛ فَيَتَّخِذُ إِلَهَهُ هَوَاهُ، وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًىٰ مِنَ اللهِ».

۞ [**تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ وَتَحْقِيقُ الإِخْلَاصِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ:**]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْمَشَايِخُ الصَّالِحُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَذْكُرُونَ شَيْئًا مِنْ تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ وَتَحْقِيقِ إِخْلَاصِ الدِّينِ كُلِّهِ؛ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُلْتَفِتًا إِلَىٰ غَيْرِ اللهِ، وَلَا نَاظِرًا إِلَىٰ مَا سِوَاهُ: لَا حُبًّا لَهُ، وَلَا خَوْفًا مِنْهُ، وَلَا رَجَاءً لَهُ.

بَلْ يَكُونُ الْقَلْبُ فَارِغًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، خَالِيًا مِنْهَا، لَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا إِلَّا بِنُورِ اللهِ؛ فَبِالْحَقِّ يَسْمَعُ، وَبِالْحَقِّ يُبْصِرُ، وَبِالْحَقِّ يَبْطِشُ، وَبِالْحَقِّ يَمْشِي؛ فَيُحِبُّ مِنْهَا مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَيُبْغِضُ مِنْهَا مَا يُبْغِضُهُ اللهُ، وَيُوَالِي مِنْهَا مَا وَالَاهُ اللهُ، وَيُعَادِي مِنْهَا مَا عَادَاهُ اللهُ، وَيَخَافُ اللهَ فِيهَا وَلَا يَخَافُهَا فِي اللهِ، وَيَرْجُو اللهَ فِيهَا وَلَا يَرْجُوهَا فِي اللهِ.

فَهَذَا هُوَ الْقَلْبُ السَّلِيمُ الْحَنِيفُ الْمُوَحِّدُ الْمُسْلِمُ الْمُؤْمِنُ الْعَارِفُ الْمُحَقِّقُ، الْمُوَحِّدُ بِمَعْرِفَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَبِحَقِيقَتِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ».

۞ [تَحْقِيقُ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ :]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَذَلِكَ تَحْقِيقُ «شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ فَإِنَّهُ يَنْفِي عَنْ قَلْبِهِ أُلُوهِيَّةَ مَا سِوَىٰ الْحَقِّ، وَيُثْبِتُ فِي قَلْبِهِ أُلُوهِيَّةَ الْحَقِّ؛ فَيَكُونُ نَافِيًا لِأُلُوهِيَّةِ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، مُثْبِتًا لِأُلُوهِيَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ.

وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ اجْتِمَاعَ الْقَلْبِ عَلَىٰ اللهِ وَعَلَىٰ مُفَارَقَةِ مَا سِوَاهُ، فَيَكُونُ مُفَرِّقًا - فِي عِلْمِهِ وَقَصْدِهِ، فِي شَهَادَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، فِي مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ - بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ عَالِمًا بِاللهِ تَعَالَىٰ، ذَاكِرًا لَهُ، عَارِفًا بِهِ، وَهُوَ

مَعَ ذَلِكَ عَالِمٌ بِمُبَايَنَتِهِ لِخَلْقِهِ، وَانْفِرَادِهِ عَنْهُمْ، وَتَوَحُّدِهِ دُونَهُمْ [فَلَيْسَ مُتَّحِدًا فِيهِمْ سُبْحَانَهُ، وَلَا حَالًّا بِهِمْ، وَلَا مُتَجَسِّدًا فِي شُخُوصِهِمْ].

وَيَكُونُ مُحِبًّا لِلَّهِ، مُعَظِّمًا لَهُ، عَابِدًا لَهُ، رَاجِيًا لَهُ، خَائِفًا مِنْهُ، مُوَالِيًا فِيهِ، مُعَادِيًا فِيهِ، مُسْتَعِينًا بِهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، مُمْتَنِعًا عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَالرَّجَاءِ لَهُ، وَالْمُوَالَاةِ فِيهِ، وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ، وَالطَّاعَةِ لِأَمْرِهِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ إِلَهِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَإِقْرَارُهُ بِأُلُوهِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ دُونَ مَا سِوَاهُ يَتَضَمَّنُ إِقْرَارَهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ؛ وَهُوَ أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ وَمُدَبِّرُهُ؛ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مُوَحِّدًا لِلَّهِ».

۞ [جِمَاعُ الدِّينِ أَصْلَانِ:]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَجِمَاعُ الدِّينِ «أَصْلَانِ»: **أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ، وَلَا نَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ؛ لَا نَعْبُدَهُ بِالْبِدَعِ.**

كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الْكَهْفُ: ١١٠].

وَذَلِكَ تَحْقِيقُ الشَّهَادَتَيْنِ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَشَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

فَفِي الْأُولَىٰ: أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا إِيَّاهُ، **وَفِي الثَّانِيَةِ**: أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ رَسُولُهُ الْمُبَلِّغُ عَنْهُ؛ فَعَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ خَبَرَهُ وَنُطِيعَ أَمْرَهُ، وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا مَا نَعْبُدُ اللهَ بِهِ، وَنَهَانَا عَنْ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا ضَلَالَةٌ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١١٢].

كَمَا أَنَّا مَأْمُورُونَ أَلَّا نَخَافَ إِلَّا اللهَ، وَلَا نَتَوَكَّلَ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ، وَلَا نَرْغَبَ إِلَّا إِلَىٰ اللهِ، وَلَا نَسْتَعِينَ إِلَّا بِاللهِ، وَأَلَّا تَكُونَ عِبَادَتُنَا إِلَّا لِلَّهِ؛ فَكَذَلِكَ نَحْنُ مَأْمُورُونَ أَنْ نَتَّبِعَ الرَّسُولَ وَنُطِيعَهُ وَنَتَأَسَّىٰ بِهِ؛ فَالْحَلَالُ مَا حَلَّلَهُ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ، وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ.

۞ [التَّشْرِيعُ يَكُونُ مِنَ اللهِ وَمِنْ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَمَّا الْعِبَادَةُ فَلَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ:]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التَّوْبَةُ: ٥٩]؛ **فَجَعَلَ الْإِيتَاءَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ**، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الْحَشْرُ: ٧].

وَجَعَلَ التَّوَكُّلَ عَلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٧٣]، وَلَمْ يَقُلْ: وَرَسُولُهُ. كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ

إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٧٣].

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأَنْفَالُ: ٦٤]؛ أَيْ: حَسْبُكَ وَحَسْبُ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا قَالَ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَرُ: ٣٦].

ثُمَّ قَالَ: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التَّوْبَةُ: ٥٩]؛ **فَجَعَلَ الْإِيتَاءَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْفَضْلِ؛ لِأَنَّ** ﴿ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الْحَدِيدُ: ٢٩]، **وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ.**

وَقَالَ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التَّوْبَةُ: ٥٩]؛ فَجَعَلَ الرَّغْبَةَ إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشَّرْحُ: ٧، ٨]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»، وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَىٰ مِثْلِ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَىٰ لِلَّهِ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ وَالْمَحَبَّةَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ؛ كَمَا فِي قَوْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نُوحٌ: ٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّورُ: ٥٢]، وَأَمْثَالِ

ذَلِكَ» اهـ.

انْتَهَىٰ مَا تَمَّ اخْتِيَارُهُ مُنْتَقًىٰ مِنْ رِسَالَةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ، الْمُسَمَّاةِ بِـ«الْعُبُودِيَّةِ»، وَهِيَ - كَمَا قَرَأْتَ - مِنْ أَجْمَلِ وَأَشْمَلِ مَا كُتِبَ فِي تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ وَبَيَانِ حَقِيقَتِهَا، وَبَيَانِ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ الدِّينُ مِنْ تَوْحِيدٍ لِلَّهِ وَاتِّبَاعٍ لِنَبِيِّهِ ﷺ.

❀❀❀

اللَّهُ لَيْسَ بَشَرًا وَلَا كَالْبَشَرِ سُبْحَانَهُ

إِذَا ظَنَّ الْإِنْسَانُ يَوْمًا أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ عَنْ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ أَوْ قَوْلٍ يَقُولُهُ سُبْحَانَهُ؛ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَعْرِفُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَالْأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَظُنَّ أَنَّهُ كَالْمَخْلُوقَاتِ سُبْحَانَهُ، فَيُعْطِي لِنَفْسِهِ الصَّلَاحِيَّةَ بِأَنْ يَسْأَلَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا عَنْ أَفْعَالِهِ، ثُمَّ يَبْدَأُ هُوَ فِي وَضْعِ الْجَوَابِ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَىٰ كَلَامِهِ جَلَّ وَعَلَا، أَوْ كَلَامِ رُسُلِهِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ لِبَيَانِ الدِّينِ لِلنَّاسِ.

وَالْأَشَدُّ عَجَبًا مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْإِجَابَاتُ مَنْسُوجَةً عَلَىٰ مَا يَتَصَوَّرُهُ هُوَ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ قَاصِرَةٍ، فَيَظُنُّ اللهَ كَالْبَشَرِ؛ يَفْخَرُ كَمَا يَفْخَرُ الْبَشَرُ - إِذْ يَفْخَرُونَ بِمَا وَهَبَهُمُ اللهُ إِيَّاهُ دُونَ فَضْلٍ مِنْهُمْ أَوْ تَدَخُّلٍ - وَحَاشَاهُ سُبْحَانَهُ، وَيُعْجَبُ بِنَفْسِهِ كَمَا يُعْجَبُ الْبَشَرُ بِأَنْفُسِهِمْ! وَحَاشَاهُ سُبْحَانَهُ.

وَأَنَّ التَّوَاضُعَ لِمَنْ عَلَا شَأْنُهُ فِي الْبَشَرِ - وَهُوَ صِفَةٌ مَمْدُوحَةٌ فِيهِمْ - يَكُونُ هُوَ هُوَ عِنْدَ الْإِلَهِ الْخَالِقِ! وَإِلَّا كَانَ الْإِلَهُ فِي زَعْمِهِمْ مَذْمُومًا! فَيَنْبَغِي

عَلَىٰ الْخَالِقِ أَنْ يَهْضِمَ حَظَّ نَفْسِهِ وَيَتَوَاضَعَ لِخَلْقِهِ، فَيُخْفِضَ مِنْ شَأْنِ نَفْسِهِ وَيَرْفَعَ مِنْ شَأْنِهِمْ عَلَيْهِ!

هَكَذَا يَتَصَوَّرُونَ! ثُمَّ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ فِكْرًا وَفَلْسَفَةً يَخْرُجُونَ بِسَبَبِهَا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ الْخَالِقِ إِلَىٰ عُبُودِيَّةٍ بَاطِلَةٍ حَقِيرَةٍ، وَهِيَ عِبَادَةُ الْأَفْكَارِ الضَّالَّةِ، وَالْعَقَائِدِ الْمُنْحَرِفَةِ، وَالتَّصَوُّرَاتِ الْمُضْمَحِلَّةِ.

وَفِي الْحَقِيقَةِ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ مَوْجُودَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ تَصَوُّرَاتِ الْبَشَرِ، لَيْسَ تُجَاهَ الْإِلَهِ فَحَسْبُ - كَمَا تَفْعَلُ الْأُمَمُ الَّتِي لَا تَهْتَدِي بِهَدْيِ الْأَنْبِيَاءِ -، بَلْ تَجِدُ ذَلِكَ أَيْضًا مَوْجُودًا عِنْدَ الْأَطْفَالِ تُجَاهَ مَا يَسْتَخْدِمُونَ مِنْ جَمَادَاتٍ، فَيُكَلِّمُونَهَا - أَيِ الْجَمَادَاتِ - وَيَتَصَوَّرُونَ لَهَا جَوَابًا، بَلْ وَيَضْرِبُونَهَا أَحْيَانًا ثُمَّ يُصْمِتُونَهَا عَنِ الْبُكَاءِ؛ إِذْ هِيَ فِي تَصَوُّرَاتِهِمْ مَا هِيَ إِلَّا كَالْبَشَرِ؛ تَتَأَلَّمُ وَتَبْكِي وَتَضْحَكُ وَتَجُوعُ؛ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ يَتَصَوَّرُهَا الْأَطْفَالُ فِي الْجَمَادَاتِ.

وَدُونَكَ الْأَفْلَامَ الْكَرْتُونِيَّةَ؛ تَجِدُ فِيهَا الْحَيَوَانَاتِ تَتَكَلَّمُ وَتُحِبُّ كَمَا يُحِبُّ الْبَشَرُ، وَلَهَا مَشَاعِرُ وَأَحَاسِيسُ وَعُقُولٌ ذَكِيَّةٌ تَسْتَطِيعُ بِهَا الْخُرُوجَ مِنَ الْمَآزِقِ، بَلْ تَجِدُهَا فِي أَكْثَرِ الْأَفْلَامِ أَذْكَىٰ مِنَ الْبَشَرِ؛ إِذْ تَسْتَطِيعُ الْمَكْرَ بِالْبَشَرِ وَالِانْتِصَارَ عَلَيْهِمْ فِي النِّهَايَةِ!

وَهَذَا يَنْقِلُنَا مِنْ تَصَوُّرَاتِ الْأَطْفَالِ إِلَىٰ تَصَوُّرَاتِ مَنْ هُمْ أَكْبَرُ مِنْهُمْ سِنًّا وَعَقْلًا؛ تَصَوُّرَاتِ مُؤَلِّفِي الرِّوَايَاتِ وَمُنْتِجِي الْأَفْلَامِ! وَإِنْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ خِلَافَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ فِكْرَةَ مَنْحِ صِفَاتِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ لِكُلِّ مَا يَتَعَامَلُ مَعَهُ الْبَشَرُ فِكْرَةٌ لَيْسَتْ مَرْفُوضَةً عَقْلًا وَلَا ذَوْقًا، وَإِلَّا لَمَا أَقْبَلَ عَلَيْهَا الْمُنْتِجُونَ يَسْتَثْمِرُونَ فِيهَا أَمْوَالَهُمْ؛ لِتَتَضَاعَفَ بِتَضَاعُفِ الْمُشَاهَدَاتِ لِأَفْلَامِهِمْ.

وَنَرْجِعُ الْآنَ إِلَىٰ أَنْسَنَةِ الْإِلَهِ وَتَشْبِيهِهِ بِالْبَشَرِ، فَكَمْ مِنْ حَضَارَةٍ عَبَدَتْ حَاكِمَهَا، وَتَصَوَّرَتْهُ الْإِلَهَ الْمُتَصَرِّفَ فِي الْكَوْنِ!

وَكَمْ مِنْ حَضَارَةٍ جَسَّدَتِ الْآلِهَةَ فِي أَصْنَامٍ عَلَىٰ هَيْئَةِ بَشَرٍ، يَعْبُدُونَهَا وَيُعْطُونَهَا مَزِيجًا مِنَ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَالصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ؛ فَهِيَ آلِهَةٌ تَتَحَكَّمُ فِي الْكَوْنِ إِلَّا أَنَّهَا عَلَىٰ هَيْئَةِ الْبَشَرِ؛ تُقْتَلُ وَتَمُوتُ، ثُمَّ تَعُودُ لِلْحَيَاةِ إِذْ هِيَ آلِهَةٌ!

وَمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ الْيُونَانِ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ؛ فَإِلَهٌ يَتَزَوَّجُ مِنَ امْرَأَةٍ بَشَرِيَّةٍ لِتُنْجِبَ لَهُ شَخْصًا نِصْفُهُ إِلَهٌ وَنِصْفُهُ بَشَرٌ!

وَمَا كَانَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ وَصْفِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّهُ إِلَهٌ مُتَجَسِّدٌ فِي جَسَدِ إِنْسَانٍ، وَلَهُ طَبِيعَتَانِ؛ طَبِيعَةٌ إِلَهِيَّةٌ، وَطَبِيعَةٌ بَشَرِيَّةٌ؛ فَيُحِبُّ مَرْيَمَ الْمَجْدَلِيَّةَ وَيَجْلِسُ مَعَهَا يَتَكَلَّمُ، وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَنَامُ، وَيُصَلِّي

وَيَبْكِي! وَيَتَأَلَّمُ عِنْدَ صَلْبِهِ، وَيُنَادِي رَبَّهُ؛ «وَنَحْوَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا: «إِيلِي، إِيلِي، لِمَا شَبَقْتَنِي؟» أَيْ: إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟»[١].

إِنَّ هَذِهِ الْفَوْضَىٰ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْإِلَهِ لَا تُثْمِرُ إِلَّا الْكَثِيرَ مِنَ الِاسْتِشْكَالِ الْمُوصِلِ إِلَىٰ الشَّكِّ الْمُؤَدِّي إِلَىٰ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ، عِيَاذًا بِاللهِ الْعَظِيمِ.

وَأَمَّا مَنْهَجُ الْإِسْلَامِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْخَالِقِ، فَعَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ؛ إِذْ هُوَ خَالِقُ النُّفُوسِ وَبَارِيهَا وَمُصَوِّرُهَا، وَهُوَ مَنْ أَنْشَأَ فِيهَا الْعُقُولَ وَالْقُلُوبَ، وَغَرَزَ فِيهَا الْفِطْرَةَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فَالْخَالِقُ الْعَظِيمُ لَيْسَ كَالْمَخْلُوقَاتِ، وَإِنَّمَا هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ وَفَاطِرُهُمْ، وَلَيْسَ كَالْبَشَرِ، وَعُقُولُهُمْ لَا تُدْرِكُ صِفَاتِهِ وَلَا أَفْعَالَهُ وَلَا حِكْمَتَهُ إِلَّا بِوَحْيٍ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِهِ يُخْبِرُهُمْ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِهِ، وَأَمَّا أَنْ يَتَعَامَلَ الْمَخْلُوقُ الضَّعِيفُ مَعَ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ وَكَأَنَّهُ يَتَعَامَلُ مَعَ شَخْصٍ بَشَرِيٍّ؛ فَقُلْ لِي بِرَبِّكَ إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ يَصِلُ الْإِنْسَانُ بِمِثْلِ هَذَا التَّصَوُّرِ الْخَاطِيءِ؟!

بَلْ لَوْ أَنَّكَ فِي بَيْتِكَ وَمَعَ أُسْرَتِكَ، فَإِنَّ خِطَابَكَ مَعَ ابْنِكَ الصَّغِيرِ لَنْ

(١) انْظُرْ «إِنْجِيلَ مَتَّىٰ»، إِصْحَاحَ (٢٧)، الْعَدَدَ (٤٦).

يَكُونَ كَمُدَاعَبَتِكَ لِقِطَّتِكَ الْأَلِيفَةِ؛ لِأَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا نَفْسًا لَهَا خَوَاصٌّ وَطِبَاعٌ وَتَصَوُّرَاتٌ؛ فَأَنْتَ تُرَاعِي ذَلِكَ، وَيَظْهَرُ عَلَيْكَ أَثَرُ ذَلِكَ إِذَا مَا تَعَامَلْتَ تَارَةً مَعَ وَلَدِكَ تُدَاعِبُهُ وَتُلَاعِبُهُ، وَتَارَةً مَعَ قِطَّتِكَ تُدَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُهَا.

بَلْ إِنَّ تَعَامُلَكَ مَعَ وَالِدِكَ الَّذِي اشْتَعَلَ رَأْسُهُ شَيْبًا، وَبَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ مَبْلَغًا عَظِيمًا لَنْ يَكُونَ كَتَعَامُلِكَ مَعَ ابْنِكَ الصَّغِيرِ الَّذِي مَا زَالَ فِي الْمَرْحَلَةِ الِابْتِدَائِيَّةِ؛ فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا طِبَاعًا، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا تَصَوُّرَاتٍ مُخْتَلِفَةً عَنِ الْأَشْيَاءِ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا أَغْرَاضًا وَأَهْدَافًا تَخْتَلِفُ عَنِ الْآخَرِ، رُبَّمَا كَانَتْ عَلَىٰ النَّقِيضِ.

هَذَا فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ الْوَاحِدَةِ، فَارِقُ السِّنِّ وَالْعَقْلِيَّةِ يُؤَدِّي إِلَىٰ هَذَا الِاخْتِلَافِ الْكَبِيرِ الَّذِي هُو اخْتِلَافُ تَضَادٍّ.

فَقُلْ لِي بِرَبِّكَ: كَيْفَ لَوْ كَانَ هَذَا الِاخْتِلَافُ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ؟!

كَيْفَ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا؟!

إِنْ كَانَتِ النُّفُوسُ تَخْتَلِفُ هَذَا الِاخْتِلَافَ الْعَظِيمَ فِي الْجِنْسِ الْوَاحِدِ، فَكَيْفَ إِذَا مَا قَارَنْتَ الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ؟!

إِنَّهَا مُقَارَنَةٌ ظَالِمَةٌ جَاهِلَةٌ.

فَإِذَا مَا فَكَّرْتَ فِي خَالِقِ الْأَكْوَانِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ، الَّذِي خَلَقَ فِيكَ مَا لَا تَعْلَمُهُ عَنْ نَفْسِكَ، وَدَبَّرَ لَكَ سَكَنًا فِي كَوْنٍ أَصْغَرُ نَجْمٍ فِيهِ يَحْتَوِي عَلَىٰ حُمَمٍ وَغَازَاتٍ مُلْتَهِبَةٍ تَسْتَطِيعُ تَدْمِيرَ مَجَرَّةٍ كَامِلَةٍ.

وَمَعَ ذَلِكَ دَبَّرَ لَكَ فِيهِ سَكَنًا مُنَاسِبًا لَكَ، فِيهِ فُصُولٌ أَرْبَعَةٌ؛ حَارَّةٌ وَبَارِدَةٌ وَبَيْنَ ذَلِكَ؛ لِتَعِيشَ فِيهِ حياةً طَيِّبَةً، وَوَفَّرَ لَكَ مِنَ الْمِيَاهِ مَا وَفرَ، وَ طَّعَامٌ يَخْرُجُ لَكَ مِنَ الْأَرْضِ طِيلَةَ الْعَامِ؛ حَتَّىٰ لا تَمُوتَ جُوعًا، وَجَعَلَ الْأَرْضَ مُسَطَّحَةً مَمْدُودَةً كَرَوِيَّةً، لِكَيْ لَا تَجِدَ لَهَا نِهَايَةً؛ فَتَحْيَا فِيهَا آمِنًا مُطْمِئَنًّا.

وَأَرْسَلَ لَكَ رُسُلًا يُخْبِرُونَكَ بِمَا يَنْفَعُكَ لِتُقْبِلَ عَلَيْهِ، وَيُحَذِّرُونَكَ مِمَّا يَضُرُّكَ لِتَنْتَهِيَ عَنْهُ، وَجَعَلَ لَكَ جَزَاءً عَلَىٰ مَا تَفْعَلُهُ مِنْ خَيْرٍ وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَيْكَ، وَعِقَابًا لَمَا تَقَعُ فِيهِ مِنْ شَرٍّ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكَ.

هَذَا الْإِلَهُ الْعَظِيمُ لَا تُعْطِهِ حَقَّهُ سُبْحَانَهُ ؟! وَلَا يَخْتَلِفُ تَصَوُّرُكَ عَنْ ذَاتِهِ الْعَظِيمَةِ عَنْ تَصَوُّرِكَ عَنْ ذَاتِ نَفْسِكَ وَذَاتِ مَنْ تَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ!

فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُعْطِي الْقِطَّةَ الصَّغِيرَةَ حَقَّهَا وَلَا تَتَصَوَّرُ ذَاتَهَا كَذَوَاتِ الْبَشَرِ!!

هَذَا وَاللهِ مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ.

❀❀❀

لِكُلِّ سُؤَالٍ صَحِيحٍ جَوَابٌ

كَمَا مَرَّ فِي فَصْلِ: «اللهُ لَيْسَ بَشَرًا وَلَا كَالْبَشَرِ»، فَإِنَّ أَيَّ بَحْثٍ عَنْ جَوَابٍ لِمِثْلِ هَذَا السُّؤَالِ «لِمَاذَا أَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ؟» وَفْقَ تَصَوُّرَاتِ الْبَشَرِ الَّتِي تُشَبِّهُ غَايَاتِ الْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ بِالدَّوَافِعِ الْبَشَرِيَّةِ، أَوْ تَقِيسُ غَايَاتِ الْأَفْعَالِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَىٰ الْغَايَاتِ مِنْ أَفْعَالِ الْبَشَرِ؛ فَإِنَّهُ يُؤَدِّي إِلَىٰ جَوَابٍ فَاسِدٍ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ مَا يَتَرَتَّبُ.

فَالسُّؤَالُ خَاطِئٌ مِنَ الْأَسَاسِ؛ لِأَنَّهُ يُوَجَّهُ إِلَىٰ مَنْ لَا يُوَجَّهُ لَهُ سُؤَالُ مُحَاسَبَةٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَجَلَّ وَعَلَا.

وَلَكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ أَنَّكَ صَنَعْتَ جِهَازًا لِعَرْضِ الْمَرْئِيَّاتِ مَثَلًا، وَوَضَعْتَ فِيهِ مِنَ الذَّكَاءِ الِاصْطِنَاعِيِّ مَا يُفِيدُهُ فِي تَخَصُّصِهِ فِي عَرْضِ الْمَرْئِيَّاتِ، ثُمَّ أَصَابَهُ خَلَلٌ فِي بَرْمَجَتِهِ فَأَصْبَحَتْ تَظْهَرُ عَلَىٰ شَاشَتِهِ تَسَاؤُلَاتٌ، تَفْهَمُ مِنْهَا أَنَّهُ يَسْأَلُكَ عَنْ عَدَمِ ظُهُورِ الْمَرْئِيَّاتِ عَلَىٰ وَجْهِكَ أَنْتَ! أَوْ لِمَاذَا لَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِكَ الصَّوْتُ الْمُسَجَّلُ فِي الْأُسْطُوَانَةِ الْمُدْمَجَةِ!

تُرَىٰ هَلْ سَتَقِفُ لِتَتَأَمَّلَ فِيمَا يَظْهَرُ عَلَىٰ شَاشَتِهِ، وَفِي عَدَمِ امْتِثَالِكَ لِمَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ؟!

أَمْ أَنَّكَ سَتَعْلَمُ حِينَهَا أَنَّهُ قَدْ سَارَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي لَمْ يُصْنَعْ لَهُ؟!

وَللهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ بَشَرًا وَلَا كَالْبَشَرِ، وَإِنَّمَا هُوَ صَانِعُ الْبَشَرِ؛ فَلَوْ بَحَثْتَ عَنْ دَافِعٍ مِنَ الدَّوَافِعِ الْبَشَرِيَّةِ لِتَجِدَهُ مُطَابِقًا لِمَا عِنْدَ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا فَلَنْ تَجِدَ.

۞ كِبْرِيَاءُ بَشَرِيٌّ يَرْفُضُ صِفَاتِ الْعَظَمَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْكِبْرِيَاءِ لِلْخَالِقِ الْعَلِيِّ!

فَإِذَا كَانَ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْبَشَرِ مَذْمُومًا - لِأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَقْهُورُونَ لِلْإِلَهِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ -؛ فَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَتَّصِفُوا بِصِفَةٍ لَا تَلِيقُ بِهِمْ؛ إِذْ ذَلِكَ مِنَ التَّشَبُّعِ بِمَا لَمْ يُعْطَ الْإِنْسَانُ، كَالْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْأَقْوِيَاءِ الَّذِينَ لَا يُغْلَبُونَ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ أَضْعَفُ مِنْ أَنْ يَصِفَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْغَلَبَةِ.

وَأَمَّا هَذِهِ الصِّفَةُ «الْكِبْرِيَاءُ» فَهِيَ فِي الْإِلَهِ الْخَالِقِ الْبَارِئِ صِفَةٌ مَحْمُودَةٌ اخْتَصَّ بِهَا نَفْسَهُ، وَلَا يَكُونُ كِبْرِيَاءُ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ جَلَّ وَعَلَا كَكِبْرِيَاءِ الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ الْفَقِيرِ إِلَىٰ خَالِقِهِ وَرَازِقِهِ؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورَىٰ: ١١].

ثُمَّ إِنَّ الِاسْتِشْكَالَ الَّذِي يَطْرَحُهُ هَؤُلَاءِ حَوْلَ كِبْرِيَاءِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ؛ لَمْ يَنْتُجْ إِلَّا لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِبْرٍ وَغُرُورٍ، وَأَصْحَابُ كِبْرِيَاءَ كَاذِبٍ، فَتَمْنَعُهُمْ هَذِهِ الصِّفَاتُ الْمَذْمُومَةُ أَنْ يَتَقَبَّلُوا عُلُوَّ الْخَالِقِ عَلَيْهِمْ، وَكِبْرِيَاءَهُ وَعَظَمَتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إِذْ قَدْ أُصِيبُوا بِمَرَضِ فِرْعَوْنَ الْقَدِيمِ، وَهُوَ مَحَبَّةُ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، فَأَرْسَلَ اللهُ لَهُ نَبِيَّهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ لَهُ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النَّازِعَاتُ: ١٧ - ٢٥].

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ»(١).

لَقَدْ نَسِيَ الْإِنْسَانُ حَقِيقَةَ نَفْسِهِ، مَعَ مَا يَسَّرَهُ اللهُ لَهُ مِنَ الْعُلُومِ لِيَعْرِفَ حَقِيقَةَ ذَاتِهِ وَقَدْرِهِ وَحَجْمِهِ فِي هَذَا الْكَوْنِ الْبَدِيعِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾ [الرَّحْمَنُ: ٣٣، ٣٤].

---

(١) رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَأَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»، بِرَقْمِ (٤٣١١).

وَقَدْ نَفَذَ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ فَصَعِدَ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ الْفَضَاءِ، وَنَزَلَ إِلَىٰ بَاطِنِ الْأَرْضِ، وَوَصَلَ إِلَىٰ أَطْرَافِهَا مِنْ جِهَةِ الْغُلَافِ الْجَوِّيِّ فَوْقَ قُطْبَيْهَا الشَّمَالِيِّ وَالْجَنُوبِيِّ، وَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ عِنْدَمَا ازْدَادَ عِلْمًا أَنْ يَزْدَادَ خُضُوعًا وَتَذَلُّلًا، وَلَكِنَّهُ مَا زَالَ يُكَابِرُ وَيَتَكَبَّرُ! وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ!

فَيَأْبَىٰ هَذَا الْمَخْلُوقُ الضَّعِيفُ الصَّغِيرُ - الَّذِي لَا حِيلَةَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ، وَلَا وَزْنَ لَهُ، وَلَا خَطَرَ - أَنْ يَتَّصِفَ الْإِلَهُ بِالْعِزَّةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَهُوَ يُرِيدُ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ الضَّعِيفَةِ الْمِسْكِينَةِ!

وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مَمْلُوكٌ مَرْبُوبٌ، وَأَنَّ الْخَالِقَ الْعَظِيمَ هُوَ مُوجِدُهُ مِنَ الْعَدَمِ وَخَالِقُهُ وَمُصَوِّرُهُ فِي صُورَةٍ بَدِيعَةٍ، وَوَاهِبُهُ هَذِهِ الْحَوَاسَّ وَالْأَعْضَاءَ الَّتِي يَعِيشُ بِهَا؛ لَوْ عَلِمَ ذَلِكَ وَتَذَكَّرَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ؛ لَعَلِمَ ضَعْفَ نَفْسِهِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهَا.

وَلَوْ عَلِمَ عَظَمَةَ الْخَالِقِ بَعْدَمَا شَاهَدَ بِعَيْنِهِ عَظِيمَ خَلْقِهِ، فَكَوَاكِبُ وَأَقْمَارٌ وَنُجُومٌ، وَكَوْنٌ مُنْتَظِمٌ يَسْبَحُ كُلُّ جُرْمٍ فِيهِ فِي فَلَكٍ بِانْتِظَامٍ لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ، وَسَمَاءٌ لَا يُرَىٰ أَوَّلُهَا مِنْ آخِرِهَا، وَأَرْضٌ قَدْ دُبِّرَتْ لَهُ - عَلَيْهَا مُقَوِّمَاتُ الْحَيَاةِ -

تَدْبِيرًا بَدِيعًا؛ لَعَلِمَ عَظَمَةَ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ وَعَظِيمَ حِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فَلَوْ تَحَصَّلَ لَدَيْهِ مَعْرِفَةُ قَدْرِ نَفْسِهِ الضَّعِيفَةِ وَ مَعْرِفَةُ عَظَمَةِ خَالِقِهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ؛ لَاسْتَسْلَمَ لَهُ وَخَضَعَ لَهُ، وَلَعَلِمَ أَنَّ الْكِبْرِيَاءَ فِي حَقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صِفَةُ ذَاتٍ، وَصِفَاتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كُلُّهَا حُسْنَىٰ، يُمْدَحُ بِهَا وَيُثْنَىٰ عَلَيْهِ بِهَا سُبْحَانَهُ، وَهِيَ فِي حَقِّ الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ صِفَاتُ ذَمٍّ وَنَقْصٍ؛ لِأَنَّهُ يَتَشَبَّعُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ كَمَا مَرَّ.

وَعَجِيبٌ أَمْرُ هَذَا الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ أَنْ يَظَلَّ يَبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ فَلْسَفِيٍّ جَدَلِيٍّ لِكَيْ يَخْرُجَ بِهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ؛ لِيَصِيرَ - فِي زَعْمِهِ - حُرًّا طَلِيقًا! وَلَوْ تَأَمَّلَ حَقَّ التَّأَمُّلِ، وَتَفَكَّرَ بِتَجَرُّدٍ وَتَعَقُّلٍ؛ لَعَلِمَ أَنَّهُ بِذَلِكَ يَصِيرُ كَالْحَيَوَانِ، بَلْ أَضَلَّ وَأَقَلَّ نَفْعًا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٩، ١٨٠].

وَهَذَا يَجْعَلُنَا نُصَوِّبُ لَهُمُ السُّؤَالَ قَائِلِينَ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْأَلَ السُّؤَالَ

الصَّحِيحَ فَعَلَيْكَ أَنْ تَقُولَ:

۞ مَا الشَّيْءُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ أَتَّخِذَهُ هَدَفًا لِي فِي حَيَاتِي؟

وَبِهَذَا تَكُونُ قَدْ تَحَوَّلْتَ مِنَ السُّؤَالِ عَمَّا يَخُصُّ الذَّاتَ الْإِلَهِيَّةَ، الَّتِي لَا تَعْرِفُ أَنْتَ عَنْهَا إِلَّا مَا هُنَالِكَ مِنْ تَشْبِيهِكَ لَهَا بِالْبِشْرِ جَهْلًا مِنْكَ وَتَعَدِّيًا عَلَىٰ نَفْسِكَ بِأَنْ تُوَرِّطَهَا فِيمَا لَا تُحْسِنُ، وَفِيمَا لَمْ تُخْلَقْ مِنْ أَجْلِهِ؛ لِأَنَّكَ مَا خُلِقْتَ لِتَسْأَلَ الرَّبَّ عَنْ أَفْعَالِهِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ الَّذِي سَيُسْأَلُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ١٩ - ٢٣].

وَهِيَ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ، وَضَّحَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَكَ فِيهَا أَنَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِلْكٌ لَهُ سُبْحَانَه؛ فَهُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ الَّذِينَ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَفْتُرُونَ عَنْهَا، ثُمَّ يَتَوَجَّهُ الْكَلَامُ إِلَىٰ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ عِبَادَتَهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَيَسْأَلُهُمْ: هَلْ تَعْبُدُونَ آلِهَةً غَيْرَهُ اتَّخَذْتُمُوهَا بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا دَلِيلٍ؟!

لَوْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ آلِهَةً غَيْرَهُ سُبْحَانَهُ، لَكُنْتُمْ خَاطِئِينَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ هُنَالِكَ آلِهَةٌ غَيْرُهُ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؛ لِأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْ كَانَتْ هُنَالِكَ آلِهَةٌ أُخْرَىٰ؛ لَنَازَعُوهُ السُّلْطَانَ، وَلَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ.

ثُمَّ يَأْتِي الرَّدُّ عَلَىٰ كَلِّ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ مُتَحَكِّمًا فِي خَالِقِهِ سُبْحَانَهُ، فَيَظُنُّ أَنَّ لَهُ الْحَقَّ أَنْ يُحَاكِمَ رَبَّهُ عَلَىٰ أَفْعَالِهِ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ فَالرَّبُّ جَلَّ وَعَلَا لَا يُسْأَلُ، وَإِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ يُسْأَلُونَ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُكَلَّفُونَ وَهُمُ الْمَخْلُوقُونَ، وَأَمَّا هُوَ فَهُوَ الْخَالِقُ جَلَّ وَعَلَا.

وَلِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ عَنْ ذَاتِهِ شَيْئًا - إِلَّا مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ هُوَ عَنْ نَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَلَا يَعْرِفُونَ عَنْ كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ شَيْئًا، فَنَعْرِفُ مَعَانِي صِفَاتِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا وَنُثْبِتُهَا لَهُ سُبْحَانَهُ، وَأَمَّا الْكَيْفِيَّةُ فَلَا نَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئًا، وَكُلُّ مَا خَطَرَ بِبَالِكَ فَاللهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَإِذَنْ فَكَيْفَ يَسْأَلُ الْجَاهِلُ الْمِسْكِينُ سُؤَالَ مُحَاسَبَةٍ وَمُحَاكَمَةٍ لِلْخَالِقِ الْعَظِيمِ؟!

بَلْ كَيْفَ يَسْأَلُ عَمَّا لَا يَسْتَطِيعُ فَهْمَهُ عَنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ وَأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

وَإِنَّمَا يَسْأَلُهُمْ عَلَّامُ الْغُيُوبِ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ قَدِ اطَّلَعَ عَلَىٰ كُلِّ مَا فَعَلُوا، وَلِيَعْتَرِفُوا بِخَطَايَاهُمْ؛ فَإِمَّا يُعَذِّبُهُمْ، وَإِمَّا يَعْفُو عَنْهُمْ سُبْحَانَهُ.

وَهُمْ يَعرِفُونَ أَنَّ الفُهُومَ تَتَفَاوَت، فَإِذَا سَأَلَ طِفلٌ صَغِيرٌ وَهُوَ فِي سِنِّ الرَّابِعَةِ وَالِدَهُ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَكَوُّنِ الْجَنِينِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَجَابَهُ بِالْجَوَابِ الدَّقِيقِ الصَّحِيحِ، وَقَالَ لَهُ: يَخْرُجُ الْحَيَوَانُ الْمَنْوِيُّ مِنَ الرَّجُلِ فَيُلَقِّحُ الْبُوَيْضَةَ، ثُمَّ تَبْدَأُ الْبُوَيْضَةُ فِي الِانْقِسَامِ إِلَىٰ عَدَدٍ مِنَ الْخَلَايَا، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ الْخَلَايَا إِلَىٰ نُطْفَةٍ فِي رَحِمِ الْأُمِّ، ثُمَّ إِلَىٰ عَلَقَةٍ... إِلَىٰ آخِرِ مَرَاحِلِ خَلْقِ الْجَنِينِ.

فَإِنَّ وَلَدَهُ الَّذِي يَسْتَمِعُ لِهَذَا الْوَصْفِ الْمُفَصَّلِ لِتَكْوِينِ الْجَنِينِ وَهُو مِنْ جِنْسِ الْمُتَكَلِّمِ - فَهُوَ بَشَرٌ يَسْمَعُ مِنْ بَشَرٍ -، وَيُكَلِّمُهُ عَنْ مَرَاحِلِ تَكْوِينِ الْجَنِينِ الْبَشَرِيِّ لَا عَنْ جَنِينٍ آخَرَ؛ فَبَشَرٌ يَصِفُ لِبَشَرٍ مَرَاحِلَ تَكْوِينِ الْجَنِينِ الْبَشَرِيِّ، وَمَع ذَلِكَ لَا يَفْهَمُ الطِّفْلُ الْبَشَرِيُّ مَا يُقَالُ لَهُ؛ لِصِغَرِ سِنِّهِ.

وَالْآنَ قُلْ لِي بِرَبِّكَ: كَيْفَ يَفْهَمُ الْإِنْسَانُ مَا يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ عَنِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ؟!

قَطْعًا يَفْهَمُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ الْخَالِقُ مِنْ عِلْمٍ عَنْهُ سُبْحَانَهُ، وَأَمَّا مَا لَمْ يُبَلِّغْ بِهِ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ فَهْمَهُ بِعَقْلِهِ الْمَحْدُودِ؛ إِذْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ؛ فَمَا

يَكُونُ مِنَ الْإِحَاطَةِ بِحِكْمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا يَنَالُهَا مَخْلُوقٌ.

وَالْآنَ فَلْنُوقِفْهُمْ عَنْ طَرْحِ هَذَا السُّؤَالِ الْجَدَلِيِّ، وَلْنَطْرَحْهُ هُوَ هُوَ عَلَيْهِمْ؛ نَعَمْ، **فَلْنَطْرَحِ السُّؤَالَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ:**

مَا الْغَايَةُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ عَلَىٰ هَذَا الْكَوْكَبِ؟

وَأَيَّ شَيْءٍ تُرِيدُ أَنْ تَحْصُلَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ؟

وَجَوَابُهُمْ لَنْ يَخْرُجَ عَمَّا يَلِي:

أَمَّا عَنِ الْغَايَةِ الَّتِي خُلِقُوا مِنْ أَجْلِهَا، فَسَيَقُولُونَ لَكَ: لَمْ نُخْلَقْ لِشَيْءٍ، بَلْ خُلِقْنَا عَبَثًا وَسَنَمُوتُ عَبَثًا، فَنَحْيَا وَنَمُوتُ، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الزَّمَنُ وَالْأَمْرَاضُ!

وَإِذَنْ فَهَذَا الْخَلْقُ الْعَظِيمُ «الْإِنْسَانُ الْبَشَرِيُّ»، وَالَّذِي رُكِّبَتْ فِيهِ الْحَوَاسُّ مِنْ سَمْعٍ وَبَصَرٍ وَكَلَامٍ وَتَذَوُّقٍ، وَمِنْ قَلْبٍ يَنْبِضُ بِالْحَيَاةِ، وَمِنْ أَطْرَافٍ يَمْشِي بِهَا وَيَعْمَلُ بِهَا كَادِحًا، وَيَتَحَرَّكُ بِهَا مُسْتَمْتِعًا، وَمِنْ عَقْلٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْهَمَ بِهِ وَيُدَبِّرَ بِهِ أُمُورَهُ وَأُمُورَ عَائِلَتِهِ، بَلْ وَمُجْتَمَعِهِ، بَلْ وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يُدِيرَ بِهِ بَلَدًا كَامِلَةً لَوْ كَانَ رَئِيسًا لَهَا؛ كُلُّ ذَلِكَ قَدْ خُلِقَ عَبَثًا بِلَا سَبَبٍ وَلَا غَايَةٍ، وَسَيُتْرَكُ سُدًىٰ بِلَا عِقَابٍ وَلَا جَزَاءٍ!!

فَلَوْ عَاشَ بِهَذِهِ الْحَوَاسِّ وَالْإِمْكَانَاتِ مُجْرِمًا مُفْسِدًا فِي الْأَرْضِ، مُسْتَمْتِعًا

بِأَمْوَالِ النَّاسِ وَأَعْرَاضِهِمْ وَدِمَائِهِمْ؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ وَلَا مُؤَاخَذَةَ!!

وَأَمَّا الشِّقُّ الثَّانِي مِنَ السُّؤَالِ وَهُوَ: أَيُّ شَيْءٍ تُرِيدُ أَنْ تُحَصِّلَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ؟

فَإِنَّ الْمُلْحِدَ رُبَّمَا يَتَفَلْسَفُ قَلِيلًا، قَائِلًا أَنَّهُ يُرِيدُ مُسَاعَدَةَ الْآخَرِينَ!

فَعَلَيْكَ أَنْ تُقَاطِعَهُ وَتَقُولَ لَه: لِمَاذَا تَفْعَلُ مَا لَمْ تُكَلَّفْ بِهِ؟! وَلِمَاذَا تَتْعَبُ فِي غَيْرِ عَائِدٍ مَادِّيٍّ يَعُودُ عَلَيْكَ؟! وَمَا الْفَارِقُ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِي يُرِيدُ مَنْعَ الْمُسَاعَدَةِ عَنِ الْآخَرِينَ مِنْ حَيْثُ الْمَآلُ؟!

فَإِنْ قَالَ لَكَ: لِأَنَّ الْجَرِيمَةَ يُعَاقِبُ عَلَيْهَا الْقَانُونُ، وَمُسَاعَدَتِي لِلنَّاسِ يُجَازِينِي عَلَيْهَا النَّاسُ خَيْرًا. فَقُلْ لَهُ: إِذَنْ أَنْتَ تَعْبُدُ الْقَانُونَ وَالنَّاسَ!

فَإِذَا ذَهَبْتَ إِلَىٰ الْغَابَةِ عِشْتَ فِيهَا عَلَىٰ قَانُونِ الْغَابِ، وَإِنْ نَزَلْتَ بِبَلَدٍ بِهَا مِنَ الْفَوْضَىٰ مَا بِهَا؛ سَتَكُونُ فَوْضَوِيًّا مُجْرِمًا!

وَأَمَّا إِنْ لَمْ يُرِدِ الْمُلْحِدُ أَنْ يَتَفَلْسَفَ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَكَ: أُرِيدُ أَنْ أَحْصُلَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ عَلَىٰ الْمُتْعَةِ حَتَّىٰ الْمَمَاتِ.

وَإِيَّاكَ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ أَيِّ مُتْعَةٍ يَتَحَدَّثُ؛ الْحَلَالُ أَمِ الْحَرَامُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُحَرِّمُ شَيْئًا، فَلَا حَرَامَ عِنْدَهُ.

وَخُلَاصَةُ مَا مَرَّ:

إِنَّ الْمَلَاحِدَةَ لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا التَّسَاؤُلَاتِ الَّتِي هِيَ مَبْنِيَّةٌ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ عَلَىٰ بَاطِلٍ وَخِدَاعٍ، وَلَوْ رَدَدْتَ نَفْسَ التَّسَاؤُلَاتِ هِيَ هِيَ عَلَيْهِمْ؛ مَا اسْتَطَاعُوا لَهَا جوابًا!

فَهُمْ كَالْأَعْمَىٰ الَّذِي لَمْ تَرَ عَيْنَاهُ النُّورَ قَطُّ، فَيَسْأَلُ عَنْ شَكْلِ السَّمَاءِ وَعَنْ لَوْنِ الْأَرْضِ، وَعَنْ طُولِ الْجِبَالِ وَمَا أَشْبَهَ، بَلْ هُمْ أَقَلُّ عِلْمًا مِنْ ذَلِكَ، فَالْأَعْمَىٰ يَسْأَلُ رُبَّمَا عَنْ أَشْيَاءَ لَهَا مَعْنًىٰ.

وَأَمَّا هُمْ فَيَقُولُونَ لَكَ: مَا الدَّلِيلُ مِنَ الْعِلْمِ التَّجْرِيبِيِّ عَلَىٰ وُجُودِ اللهِ؟

وَالْعِلْمُ التَّجْرِيبِيُّ هُوَ الْعِلْمُ الْمَعْمَلِيُّ؛ فَيَظُنُّونَ الرَّبَّ جَلَّ وَعَلَا مَادَّةً يَسْتَطِيعُونَ إِخْضَاعَهُ لِقَوَانِينَ الْمَادَّةِ!

وَإِذَا مَا سَأَلْتَهُمْ أَنْتَ قَائِلًا: مَا الدَّلِيلُ مِنَ الْعِلْمِ التَّجْرِيبِيِّ عَلَىٰ عَدَمِ وُجُودِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؟

فَإِنَّهُمْ سَيَقُولُونَ لَكَ بِكُلِّ سُخْفٍ: الْعِلْمُ التَّجْرِيبِيُّ لَيْسَ مِنَ اخْتِصَاصِهِ الْجَوَابُ عَلَىٰ هَذَا السُّؤَالِ! بَلْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: لَا يُوجَدُ دَلِيلٌ عِلْمِيٌّ تَجْرِيبِيٌّ عَلَىٰ عَدَمِ وُجُودِ اللهِ.

وَإِذَنْ فَالْأَمْرُ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الْخُدَعِ وَالْجِدَالِ السُّفِسْطَائِيِّ الَّذِي لَا يَنْطَلِي إِلَّا عَلَىٰ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ حِيَلَهُمْ بَعْدُ.

وَغَايَةُ أَمْرِ هَؤُلَاءِ: أَنْ يَحْيَا الْوَاحِدُ مِنْهُمْ زَمَنًا مِنَ عُمْرِهِ، ثُمَّ يَجْلِسَ جَلْسَةِ عَقْلٍ وَتَجَرُّدٍ مَعَ نَفْسِهِ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ مَا كَانَ يَقُولُهُ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ مَا هُوَ إِلَّا مُكَابَرَاتٌ وَمُخَادَعَاتٌ يُكَابِرُ بِهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَيُخَادِعُ بِهَا نَفْسَهُ لِيَصِلَ إِلَىٰ الْخُرُوجِ مِنْ دَائِرَةِ التَّكْلِيفِ؛ لِيُصْبِحَ فِي ظَنِّهِ حُرًّا طَلِيقًا، فَيُفَاجَأُ بِأَنَّهُ صَارَ طَرِيدًا شَرِيدًا تَائِهًا ضَائِعًا.

وَالْآنَ دَعُونَا نُجِيبُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ جَوَابًا صَحِيحًا مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ وَمُؤَيِّدًا بِالْعَقْلِ، فِي الْفَصْلِ التَّالِي:

❊❊❊

لِمَاذَا أَمَرَنَا اللهُ بِالْعِبَادَةِ؟

۞ الْعِبَادَةُ هِيَ مُقْتَضَى الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ:

لِأَنَّ الشَّرْعَ جَاءَ لِتَنْظِيمِ الْعَلَاقَاتِ؛ فَنَظَّمَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ، وَبَيْنَ الْأَبْنَاءِ وَالْآبَاءِ، وَبَيْنَ الْأَخِ وَأَخِيهِ، وَلِكُلِّ عَلَاقَةٍ مُقْتَضًى وَنِظَامٌ بُنِيَتْ عَلَيْهِ.

فَعَلَى الزَّوْجِ أَنْ يَلْتَزِمَ بِمَا يَنْبَغِي عَلَيْهِ فِعْلُهُ تُجَاهَ زَوْجَتِهِ، وَيَبْتَعِدَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي عَلَيْهِ فِعْلُهُ تُجَاهَهَا.

فَعَلَيْهِ أَنْ يُنْفِقَ عَلَى زَوْجَتِهِ، وَكَذَا عَلَى أَوْلَادِهِ، وَلَا يَتَمَلَّصَ مِنْ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ فَقِيرًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطَّلَاقُ: ٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢٣٣].

وَكَمَا كَلَّفَ الزَّوْجَ بِوَاجِبَاتٍ أَعْطَاهُ مِنَ الْحُقُوقِ مَا أَعْطَاهُ؛ مِنْ وُجُوبِ طَاعَةِ الزَّوْجَةِ لَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ حُقُوقٍ وَوَاجِبَاتٍ.

وَكَذَلِكَ نَظَّمَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ: قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٢٣، ٢٤].

وَكَذَلِكَ جَعَلَ عَلَىٰ الْآبَاءِ وَاجِبَاتٍ تُجَاهَ الْأَبْنَاءِ مِنَ النَّفَقَةِ وَالرِّعَايَةِ وَالتَّرْبِيَةِ عَلَىٰ الدِّينِ الصَّحِيحِ وَالْخُلُقِ الْقَوِيمِ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»: «**كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ**».

وَنَظَّمَ الشَّرْعُ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْجَارِ وَجَارِهِ، وَبَيْنَ الطَّالِبِ وَمُعَلِّمِهِ، وَبَيْنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي، وَبَيْنَ الشُّرَكَاءِ فِي التِّجَارَةِ وَالشَّرِكَاتِ... إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ضَبْطِ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ النَّاسِ؛ لِتَسْتَقِيمَ الْحَيَاةُ.

فَكَذَلِكَ وَضَّحَ الشَّرْعُ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَخَالِقِهِ جَلَّ وَعَلَا، فَإِنْ كَانَ

---

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

الْأَبْنَاءُ عَلَيْهِمْ تُجَاهَ آبَائِهِمُ الطَّاعَةُ وَالْبِرُّ، لِمَا لِآبَائِهِمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ وَنَفَقَةٍ وَرِعَايَةٍ وَإِحْسَانٍ؛ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ أَنْ يُطِيعَ الْمَخْلُوقُ خَالِقَهُ، فَلَوْلَا الْخَالِقُ مَا وُجِدَ الْمَخْلُوقُ.

فَلَوْ خَلَقَهُ وَتَرَكَهُ دُونَ أَنْ يُوَفِّرَ لَهُ سُبُلَ الْحَيَاةِ لَكَانَ ذَلِكَ مُوجِبًا عَلَىٰ الْمَخْلُوقِ أَنْ يُفْرِدَ الْخَالِقَ بِالْعِبَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالتَّذَلُّلِ، فَكَيْفَ وَهُوَ خَالِقُهُ وَرَازِقُهُ وَمُوَفِّرٌ لَهُ سُبُلَ الْحَيَاةِ عَلَىٰ كَوْكَبٍ يُنَاسِبُ احْتِيَاجَاتِهِ، وَيُخْرِجُ لَهُ النَّبَاتَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُطْعِمَهُ، وَيُنَزِّلُ لَهُ الْمَاءَ مِنَ السُّحُبِ لِيُسْقِيَهُ، وَسَخَّرَ لَهُ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ لِيَنْتَفِعَ بِهَا.

حَتَّىٰ السَّمَكُ فِي الْبِحَارِ جَعَلَ اللهُ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ مَنْفَعَةً، وَوَهَبَهُ الْعَقْلَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ بِهِ تَرْوِيضَ أَقْوَىٰ الْأَسْوَدِ، وَالنَّجَاةَ مِنَ الْمَخَاطِرِ وَالْمَهَالِكِ؛ فَكَيْفَ لَهُ أَنْ يَتَحَصَّلَ عَلَىٰ مَا وَهَبَهُ اللهُ لَهُ فَضْلًا مِنْهُ وَتَكَرُّمًا، وَيَجْحَدُ مَا أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ إِفْرَادِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِالْعِبَادَةِ؟!

وَإِذَنْ فَمُقْتَضَىٰ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ؛ هِيَ أَنْ يُفْرِدَ الْمَخْلُوقُ خَالِقَهُ بِالْعِبَادَةِ:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ؟»، قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ

أَعْلَمُ. قَالَ: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟»، قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»، وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: «وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(١).

وَفِي «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ»: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ؛ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا؛ فَقَالَ عِيسَىٰ: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا؛ فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِمَّا أَنْ آمُرُهُمْ.

فَقَالَ يَحْيَىٰ: أَخْشَىٰ إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَامْتَلَأَ الْمَسْجِدُ وَتَعَدَّوْا عَلَىٰ الشُّرَفِ(٢)، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ:

أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مِثْلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَىٰ عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي، فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ. فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَىٰ غَيْرِ سَيِّدِهِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

(٢) الشُّرَفُ: مَا يَكُونُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ مِمَّا هُوَ مِنْهُ وَلَهُ.

فَأَيُّكُمْ يَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ...» الْحَدِيثُ(١).

فَكَوْنُ الْعَبْدِ مَمْلُوكًا لِلَّهِ - إِذْ هُوَ خَالِقُهُ وَمُوجِدُهُ مِنَ الْعَدَمِ وَرَازِقُهُ وَمُدَبِّرٌ لَهُ أَمْرَهُ -؛ يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَعْبُدَهُ سُبْحَانَهُ، وَإِلَّا كَانَ كَمَنْ يَعْمَلُ فِي عَمَلِ سَيِّدِهِ وَيُؤَدِّي مَا يَتَحَصَّلُ عَلَيْهِ مِنْ مَالٍ مِنَ الْعَمَلِ لَدَىٰ سَيِّدِهِ لِرَجُلٍ آخَرَ.

فَلَوْ كَانَ يَعْبُدُ هَوَاهُ وَعَقْلَهُ وَيُقَدِّمُهُمَا عَلَىٰ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ؛ فَهُوَ يَعْمَلُ فِي عَمَلِ سَيِّدِهِ ثُمَّ يَدْفَعُ الْمَالَ إِلَىٰ عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، فَمَا الْعَقْلُ وَمَا الْهَوَىٰ إِلَّا مَخْلُوقَيْنِ مَمْلُوكَيْنِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَمَنْ يَدْفَعُ لَهُمَا مَا يُدْفَعُ لِلْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا - مِنَ اسْتِسْلَامٍ لِأَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابٍ لِنَوَاهِيهِ - فَقَدْ أَشْرَكَهُمَا مَعَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، عِيَاذًا بِاللهِ، وَلِيَاذًا بِجَنَابِهِ الرَّحِيمِ.

۞ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [**الْمُلْكُ**: ٢].

فَلَمْ يَخْلُقْنَا اللهُ عَبَثًا وَلَنْ يَتْرُكَنَا سُدًىٰ، وَإِنَّمَا كَلَّفَنَا بِمَا كَلَّفَنَا بِهِ اخْتِبَارًا

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

لَنَا؛ لِيَبْلُوَنَا أَيُّنَا أَحْسَنُ عَمَلًا.

فَمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا؛ فَلَهُ جَزَاءً الْجَنَّةُ، وَمَنْ كَفَرَ وَتَكَبَّرَ عَنْ عِبَادَتِهِ سُبْحَانَهُ؛ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا، جَزَاءً وِفَاقًا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ١١٥، ١١٦].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الآيَةِ:

«أَفَظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ عَبَثًا بِلَا قَصْدٍ وَلَا إِرَادَةٍ مِنْكُمْ وَلَا حِكْمَةٍ لَنَا، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾؛ أَيْ: لَا تَعُودُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [الْقِيَامَةُ: ٣٦]؛ يَعْنِي هَمْلًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾؛ أَيْ: تقدَّسَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا عَبَثًا؛ فَإِنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾؛ فَذَكَرَ الْعَرْشَ؛ لِأَنَّهُ سَقْفُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ، أَيْ: حَسَنُ الْمَنْظَرِ بَهِيُّ الشَّكْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لُقْمَانُ: ١٠]»اهـ.

وَتَخَيَّلْ أَنَّ الْحَيَاةَ كَانَتْ مُجَرَّدَ حَيَاةٍ، لَا يَتْبَعُهَا بَعَثٌ وَلَا حِسَابٌ، مَا الَّذِي يَدْفَعُ النَّاسَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، وَمَا الَّذِي يَجْعَلُهُمْ

يَكُفُّونَ أَيْدِيَهُمْ عَنْ أَمْوَالِ الْخَلْقِ وَأَعْرَاضِهِمْ وَدِمَائِهِمْ؟!

فَإِنْ كَانَ الْجَزَاءُ يَضْبِطُ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَهُوَ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ يَضْبِطُ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْمَخْلُوقِ وَخَالِقِهِ جَلَّوَعَلَا.

فَلِأَنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ مَنْ مَيَّزَكَ اللهُ بِالْعَقْلِ، وَجَعَلَكَ مُخَيَّرًا فِي أَفْعَالِكَ وَأَقْوَالِكَ؛ وَضَعَ اللهُ لَكَ شَرَائِعَ وَعِبَادَاتٍ لَا يَنْبَغِي عَلَيْكَ الْخُرُوجُ عَنْهَا.

فَأَبَاحَ لَكَ أُمُورًا لِأَنَّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَحَرَّمَ عَلَيْكَ أُمُورًا لَا بُخْلًا مِنْهُ، وَإِنَّمَا لِأَنَّهُ يَكْرَهُ لَكَ أَنْ تَقَعَ فِي الْخَبَائِثِ؛ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَالْأَنْعَامِ؛ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ بِلَا عَقْلٍ وَلَا أَخْلَاقٍ وَلَا قِيَمٍ وَلَا دِينٍ، فَلِأَنَّهُ مَيَّزَكَ بِالْعَقْلِ وَجَعَلَكَ مُخْتَارًا لِأَفْعَالِكَ؛ وَضَعَ لَكَ قَوَانِينَ لَا يَجُوزُ لَكَ خَرْقُهَا وَلَا التَّعَدِّي عَلَيْهَا، وَإِلَّا كَانَ الْجَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

۞ لأَنَّ الإِنْسَانَ لا تَسْتَقِيمُ حيَاتُهُ إلاَّ بِالتَّوْحِيدِ وَإِفْرَادِ الله بِالْعِبَادَةِ:

إِنَّ النَّظَرَ لِلْعِبَادَةِ عَلَىٰ أَنَّهَا مَحْضُ تَكْلِيفٍ خَطَأٌ، بَلْ خَطِيئَةٌ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَا كَانَ لِيَأْمُرَ بِشَيْءٍ لَا نَفْعَ فِيهِ، وَمَا كَانَ لِيَنْهَىٰ عَنْ شَيْءٍ لَا ضَرَرَ فِيهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٨٥].

فَالْإِنْسَانُ لَا تَسْتَقِيمُ حَيَاتُهُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا

ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٢].

فَكَمَا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا؛ فَكَذَلِكَ قَلْبُ الْإِنْسَانِ لَوْ دَخَلَ فِيهِ شَرِيكٌ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا لَفَسَدَ؛ فَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَإِفْرَادِ اللهِ بِالْعِبَادَةِ أَمْرٌ يُؤَدِّي إِلَىٰ صَلَاحِ الْقَلْبِ وَسَلَامَتِهِ، كَمَا أَنَّ بِالشِّرْكِ وَالِاسْتِنْكَافَ عَنِ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِكْبَارَ؛ يُؤَدِّي إِلَىٰ فَسَادِ الْقَلْبِ وَمَوْتِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٢٥].

فَالْمُهْتَدِي هُوَ صَاحِبُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ، الَّذِي إِذَا مَا عُرِضَ عَلَيْهِ الْحَقُّ انْشَرَحَ صَدْرُهُ لَهُ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ وَالْمُسْتَكْبِرُ فَإِنَّ صَدْرَهَ إِذَا مَا عُرِضَ عَلَيْهِ الْحَقُّ ضَاقَ، كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ لَا يَسْتَطِيعُ تَنَفُّسًا.

وَمَنْ نَظَرَ فِي الْحَضَارَاتِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي لَمْ تَنْتَفِعْ بِنُورِ النُّبُوَّةِ وَلَا بِهَدْيِ الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ -؛ فَإِنَّهُ سَيَجِدُ فِيهَا مِنَ الْعَجَبِ مَا لَا يُحْصَىٰ.

لَنْ تَجِدَ حَضَارَةً إِلَّا وَفِيهَا مِنَ الْمَعَابِدِ وَأَنْوَاعِ الْآلِهَةِ الْمَعْبُودَةِ بِالْبَاطِلِ مَا لَا يُحْصَىٰ عَدَدًا وَلَا جِنْسًا!

فَمِنْ أُمَّةٍ تَعْبُدُ الْبَقَرَ! وَمِنْ أُمَّةٍ تَعْبُدُ الشَّمْسَ أَوِ الْقَمَرَ! وَمِنْ أُمَّةٍ تَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ! وَمِنْ أُمَّةٍ تَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ وَالْحُكَّامَ! إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسَاطِيرِ وَالْخُرَافَاتِ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ مَعْرُوفٌ بَيْنَ النَّاسِ الْيَوْمَ، لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا جَاحِدٌ.

بَلْ مَا كَانَ عِنْدَ الْيُونَانِ مِنْ خُرَافَاتٍ عَنْ تَصَارُعِ الْآلِهَةِ وَاخْتِلَاطِهِمْ بِالْبَشَرِ، حَتَّىٰ يَنْكِحَ إِلَهٌ مَزْعُومٌ امْرَأَةً مِنَ الْبَشَرِ لِيُنْجِبَ مِنْهَا نِصْفَ إِلَهٍ وَنِصْفَ إِنْسَانٍ! إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخُرَافَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ.

كُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّكَ عَلَىٰ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَبْحَثُ عَنْ إِلَهٍ لِكَيْ يَعْبُدَهُ؛ فَإِمَّا أَنْ يَهْتَدِيَ لِلْحَقِّ الْحَقِيقِ، وَإِمَّا أَنْ تُضِلَّهُ الشَّيَاطِينُ فَيَعْبُدَ مِنَ الْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ مَا يَعْبُدُ.

وَمَا كَانَتِ الْبَشَرِيَّةُ يَوْمًا تَفِرُّ مِنْ عِبَادَةِ الْإِلَهِ، وَمَا كَانَ الْخُضُوعُ وَالتَّذَلُّلُ وَمَحَبَّةُ الْإِلَهِ يَوْمًا حِمْلًا ثَقِيلًا عَلَيْهَا، بَلْ كَانَ الشِّرْكُ يَقَعُ بِسَبَبِ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَىٰ ذَلِكَ بِلَا ضَوَابِطَ شَرْعِيَّةٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَىٰ نُورِ الْحَقِّ الْمُرْسَلِ مِنَ السَّمَاءِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ.

فَتَجِدُهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ

زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ [الزُّمَرُ: ٢، ٣].

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ:

«﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾؛ هَذَا تَقْرِيرٌ لِلْأَمْرِ بِالْإِخْلَاصِ، وَبَيَانٌ أَنَّهُ تَعَالَىٰ كَمَا أَنَّهُ لَهُ الْكَمَالُ كُلُّهُ، وَلَهُ التَّفَضُّلُ عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ؛ فَكَذَلِكَ لَهُ الدِّينُ الْخَالِصُ الصَّافِي مِنْ جَمِيعِ الشَّوَائِبِ.

فَهُوَ الدِّينُ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِنَفْسِهِ، وَارْتَضَاهُ لِصَفْوَةِ خَلْقِهِ وَأَمَرَهُمْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلتَّأَلُّهِ للهِ فِي حُبِّهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ، وَلِلْإِنَابَةِ إِلَيْهِ فِي عُبُودِيَّتِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ فِي تَحْصِيلِ مَطَالِبِ عِبَادِهِ.

وَذَلِكَ الَّذِي يُصْلِحُ الْقُلُوبَ وَيُزَكِّيهَا وَيُطَهِّرُهَا، دُونَ الشِّرْكِ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَةِ، فَإِنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنْهُ، وَلَيْسَ للهِ فِيهِ شَيْءٌ - فَهُوَ أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ -، وَهُوَ مُفْسِدٌ لِلْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مُشْقٍ لِلنُّفُوسِ غَايَةَ الشَّقَاءِ.

فَلِذَلِكَ لَمَّا أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ؛ نَهَىٰ عَنِ الشِّرْكِ بِهِ، وَأَخْبَرَ بِذَمِّ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ؛ فَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ أَيْ: يَتَوَلَّوْنَهُمْ

بِعِبَادَتِهِمْ وَدُعَائِهِمْ، [مُعْتَذِرِينَ] عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَقَائِلِينَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾؛ أَيْ: لِتَرْفَعَ حَوَائِجَنَا للهِ، وَتَشْفَعَ لَنَا عِنْدَهُ، وَإِلَّا فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَخْلُقُ، وَلَا تَرْزُقُ، وَلَا تَمْلِكُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا.

أَيْ: فَهَؤُلَاءِ قَدْ تَرَكُوا مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ، وَتَجَرَّءُوا عَلَىٰ أَعْظَمِ الْمُحَرَّمَاتِ؛ وَهُوَ الشِّرْكُ، وَقَاسُوا الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، الْمَلِكَ الْعَظِيمَ، بِالْمُلُوكِ.

وَزَعَمُوا بِعُقُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَرَأْيِهِمُ السَّقِيمِ أَنَّ الْمُلُوكَ كَمَا أَنَّهُ لَا يُوصَلُ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِوُجَهَاءَ وَشُفَعَاءَ وَوُزَرَاءَ؛ يَرْفَعُونَ إِلَيْهِمْ حَوَائِجَ رَعَايَاهُمْ، وَيَسْتَعْطِفُونَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَيُمَهِّدُونَ لَهُمُ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ؛ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَذَلِكَ.

وَهَذَا الْقِيَاسُ مِنْ أَفْسَدِ الْأَقْيِسَةِ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، مَعَ ثُبُوتِ الْفَرْقِ الْعَظِيمِ عَقْلًا وَنَقْلًا وَفِطْرَةً» اهـ.

وَإِذَنْ فَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَإِفْرَادِ اللهِ بِالْعِبَادَةِ لَا يُؤَدِّي إِلَّا لِصَلَاحِ الْقُلُوبِ، وَاسْتِقَامَةِ النُّفُوسِ، وَتَحَرُّرِهَا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَمَا مِنْ مُشْرِكٍ بِاللهِ أَوْ كَافِرٍ بِأُلُوهِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا وَهُوَ عَبْدٌ لِسِوَاهُ رَغْمَ أَنْفِهِ؛ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِشَهَوَاتِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِأَهْوَائِهِ، وَهِيَ فِي

الْمُنْتَهَىٰ -أي: الأَهواء- أُمُورٌ حَقِيرَةٌ لَا تَسْتَحِقُّ الِالْتِفَاتَ إِلَيْهَا، فَضْلًا عَنِ الِاسْتِسْلَامِ لَهَا، وَالْتِزَامِ مَا تَأْمُرُ بِهِ!

وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ مَمْلُوكَةٌ لَا يَزْدَادُ مَنْ تَرَكَ عِبَادَةَ الْخَالِقِ لِعِبَادَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْحَقِيرَةِ الْمَخْلُوقَةِ إِلَّا ذُلًّا وَمَهَانَةً.

وَإِذَنْ فَالْأَمْرُ بِإِفْرَادِ اللهِ بِالْعِبَادَةِ أَمْرٌ بِصَلَاحِ الْقُلُوبِ، وَحُرِّيَّةِ النُّفُوسِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ وَالْمَالِكِ الْكَبِيرِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ -:

«فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ مُحْتَاجًا إِلَىٰ جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ، وَنَفْسُهُ مُرِيدَةٌ دَائِمًا، وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُرَادٍ يَكُونُ غَايَةَ مَطْلُوبِهَا؛ لِتَسْكُنَ إِلَيْهِ وَتَطْمَئِنَّ بِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ فَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إِلَّا بِهِ، وَلَا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأَنْبِيَاءُ: ٢٢].

فَكُلُّ مَأْلُوهٍ سِوَاهُ يَحْصُلُ بِهِ الْفَسَادُ، وَلَا يَحْصُلُ صَلَاحُ الْقُلُوبِ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

فَإِذَا لَمْ تَكُنِ الْقُلُوبُ مُخْلِصَةً لِلَّهِ الدِّينَ: عَبَدَتْ غَيْرَهُ مِنَ الْآلِهَةِ الَّتِي يَعْبُدُهَا أَكْثَرُ النَّاسِ مِمَّا رَضُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ؛ فَأَشْرَكَتْ بِاللهِ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ

وَاسْتِعَانَتِهِ؛ فَتَعْبُدُ غَيْرَهُ وَتَسْتَعِينُ بِهِ؛ لِجَهْلِهَا بِسَعَادَتِهَا الَّتِي تَنَالُهَا بِعِبَادَةِ خَالِقِهَا وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ؛ فَبِالْعِبَادَةِ لَهُ تَسْتَغْنِي عَنْ مَعْبُودٍ آخَرَ، وَبِالِاسْتِعَانَةِ بِهِ تَسْتَغْنِي عَنْ الِاسْتِعَانَةِ بِالْخَلْقِ»[1].

۞ لأَنَّ الْعَبْدَ يَحْتَاجُ إِلَى الْعِبَادَةِ، وَأَمَّا الرَّبُّ فَلَا يَعُوذُهُ شَيْءٌ:

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَالْحقُّ الَّذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ:** أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا أَرْسَلَ رَسُولَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَأَنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ وَإِنْزَالَ الْكُتُبِ رَحْمَةٌ عَامَّةٌ لِلْخَلْقِ أَعْظَمُ مِنْ إِنْزَالِ الْمَطَرِ، وَإِطْلَاعِ الْبَذْرِ، وَإِنْ يَحْصُلُ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ ضَرَرٌ لِبَعْضِ النُّفُوسِ.

ثُمَّ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ - كَمَا قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ - لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلَا نَهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنهُ بُخْلًا مِنْهُ؛ بَلْ أَمَرَهُمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ، وَنَهَاهُمْ عَمَّا فِيهِ فَسَادُهُمْ.

وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ - حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ -: «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ**

(١) «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَىٰ» (١/ ٥٥).

إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.

يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمُ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْبَحْرُ إِذَا غُمِسَ فِيهِ الْمِخْيَطُ غَمْسَةً وَاحِدَةً.

يَا عبَادي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفسَهُ»»[1] اهـ.

❁ **إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ هُوَ بَذْلُ الشَّيْءِ لِمُسْتَحِقِّهِ** جَلَّ وَعَلَا:

فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يُحِبُّ لِلْإِنْسَانِ الْخَيْرَ، وَقَدْ أَرْسَلَ رُسُلَهُ لِيَأْمُرُوا الْبَشَرِيَّةَ

---

(١) «قَاعِدَةٌ فِي الْمَحَبَّةِ»، لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ (صَحِيفَةُ ١٨٣).

بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ تَكُونُ فِي جَمِيعِ مُعَامَلَاتِ الْإِنْسَانِ؛ فَيَكُونُ الْإِنْسَانُ ذَا خُلُقٍ حَسَنٍ مَعَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَمَعَ إِخْوَانِهِ، وَمَعَ زَوْجِهِ، وَمَعَ جِيرَانِهِ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ مَعَ خَالِقِهِ وَرَازِقِهِ سُبْحَانَهُ.

وَلِأَنَّ إِفْرَادَ اللهِ بِالْعِبَادَةِ هُوَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَفِيهِ كَمَالُ الْخُلُقِ وَكَمَالُ الْأَدَبِ، وَفِيهِ بَذْلُ الشَّيْءِ لِمُسْتَحِقِّهِ، وَمَنْعُهُ عَمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ؛ فَأَمَرَ اللهُ بِهِ الْإِنْسَانَ؛ لِيَكُونَ عَلَىٰ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ.

لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَبْذُلِ الْعِبَادَةَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا؛ فَإِنَّهُ سَيَبْذُلُهَا لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا، وَهَذَا مِنْ أَظْلَمِ الظُّلْمِ، وَأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ، وَكَمَا مَرَّ، لَوْ أَنَّ الْعَبْدَ اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَكُونُ عَابِدًا لِهَوَاهُ وَرَغَبَاتِ نَفْسِهِ- وإن زَعَمَ أَنَّهُ لاَ يَعبُدُ شَيئًا - وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَدْ أَذَلَّ نَفْسَهُ وَاسْتَرَقَّهَا مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي، بَعْدَمَا حَرَّرَهُ اللهُ مِنْ عِبَادَةِ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَكَمَا هُوَ مَعْلُومٌ: أَنَّهُ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الْكَوْنِ رَبَّانِ قَدْ خَلَقَاهُ ودَبَّرَا أَمْرَهُ، وَأَحَاطَتْهُ عِنَايَتُهُمَا، وَإِنَّمَا هُوَ رَبٌّ وَاحِدٌ خَالِقٌ وَمُدَبِّرٌ سُبْحَانَهُ، **فَكَذَلِكَ لا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ إِلَهَانِ يُعْبَدَانِ.**

لِأَنَّ الْمَعْبُودَ لَا يُعْبَدُ إِلَّا إِذَا كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْعِبَادَةِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ

أَحَدٌ غَيْرَ الْخَالِقِ الرَّازِقِ الْمُدَبِّرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❁ **لأَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ غِذَاءُ الرُّوحِ:**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرَّعْدُ: ٢٨].

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الآيَةِ:

«﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾؛ أَيْ: حَقِيقٌ بِهَا وَحَرِيٌّ أَنْ لَا تَطْمَئِنَّ لِشَيْءٍ سِوَىٰ ذِكْرِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَلَذُّ لِلْقُلُوبِ وَلَا أَشْهَىٰ وَلَا أَحْلَىٰ مِنْ مَحَبَّةِ خَالِقِهَا، وَالْأُنْسِ بِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَعَلَىٰ قَدْرِ مَعْرِفَتِهَا بِاللهِ وَمَحَبَّتِهَا لَهُ؛ يَكُونُ ذِكْرُهَا لَهُ، هَذَا عَلَىٰ الْقَوْلِ بِأَنَّ «ذِكْرَ اللهِ» ذِكْرُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ؛ مِنْ تَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ وَتَكْبِيرٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِـ«ذِكْرِ اللهِ»: كِتَابُهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ ذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ فَعَلَىٰ هَذَا مَعْنَىٰ طُمَأْنِينَةِ الْقُلُوبِ بِذِكْرِ اللهِ: أَنَّهَا حِينَ تَعْرِفُ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ وَأَحْكَامَهُ تَطْمَئِنُّ لَهَا؛ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ الْمُؤَيَّدِ بِالْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ، وَبِذَلِكَ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ؛ فَإِنَّهَا لَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إِلَّا بِالْيَقِينِ وَالْعِلْمِ، وَذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ مَضْمُونٌ عَلَىٰ أَتَمِّ الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا، وَأَمَّا مَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي

لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ فَلَا تَطْمَئِنُّ بِهَا، بَلْ لَا تَزَالُ قَلِقَةً مِنْ تَعَارُضِ الْأَدِلَّةِ وَتَضَادِّ الْأَحْكَامِ.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاءُ: ٨٢]، وَهَذَا إِنَّمَا يَعْرِفُهُ مَنْ خَبَرَ كِتَابَ اللهِ وَتَدَبَّرَهُ، وَتَدَبَّرَ غَيْرَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ؛ فَإِنَّهُ يَجِدُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَرْقًا عَظِيمًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ **[الرَّعْدُ: ٢٩]:**

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أَيْ: آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَومِ الْآخِرِ، وَصَدَّقُوا هَذَا الْإِيمَانَ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ؛ كَمَحَبَّةِ اللهِ وَخَشْيَتِهِ وَرَجَائِهِ، وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ؛ كَالصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا، ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾؛ أَيْ: لَهُمْ حَالَةٌ طَيِّبَةٌ وَمَرْجِعٌ حَسَنٌ.

وَذَلِكَ بِمَا يَنَالُونَ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّ لَهُمْ كَمَالَ الرَّاحَةِ وَتَمَامَ الطُّمَأْنِينَةِ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ «شَجَرَةُ طُوبَىٰ» الَّتِي فِي الْجَنَّةِ، الَّتِي يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا، كَمَا وَرَدَتْ بِهَا الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ» اهـ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَحْتَ فَوَائِدِ الذِّكْرِ:

«أَنَّهُ قُوتُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ، فَإِذَا فَقَدَهُ الْعَبْدُ صَارَ بِمَنْزِلَةِ الْجِسْمِ إِذَا حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُوتِهِ، وَحَضَرْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ مَرَّةً صَلَّىٰ الْفَجْرَ، ثُمَّ جَلَسَ يَذْكُرِ اللهَ تَعَالَىٰ إِلَىٰ قَرِيبٍ مِنَ انْتِصَافِ النَّهَارِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: هَذِهِ غَدْوَتِي، وَلَوْ لَمْ أَتَغَدَّ الْغَدَاءَ سَقَطَتْ قُوَّتِي. أَوْ كَلَامًا قَرِيبًا مِنْ هَذَا.

وَقَالَ لِي مَرَّةً: لَا أَتْرُكُ الذِّكْرَ إِلَّا بِنِيَّةِ إِجْمَامِ نَفْسِي وَإِرَاحَتِهَا؛ لَأَسْتَعِدَّ بِتِلْكَ الرَّاحَةِ لِذِكْرٍ آخَرَ. أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ»[1] اهـ.

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْإِيمَانُ لَهُ حَلَاوَةٌ، وَطَعْمٌ يُذَاقُ بِالْقُلُوبِ، كَمَا تُذَاقُ حَلَاوَةُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ بِالْفَمِ؛ **فَإِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ غِذَاءُ الْقُلُوبِ وَقُوتُهَا**، كَمَا أَنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ غِذَاءُ الْأَبْدَانِ وَقُوتُهَا.

وَكَمَا أَنَّ الْجَسَدَ لَا يَجِدُ حَلَاوَةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا عِنْدَ صِحَّتِهِ، فَإِذَا سَقِمَ لَمْ يَجِدْ حَلَاوَةَ مَا يَنْفَعُهُ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ قَدْ يَسْتَحْلِي مَا يَضُرُّهُ وَمَا لَيْسَ فِيهِ حَلَاوَةٌ؛ لِغَلَبَةِ السُّقْمِ عَلَيْهِ؛ فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ، إِنَّمَا يَجِدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ إِذَا سَلِمَ مِنْ مَرَضِ الْأَهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ وَالشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ؛ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ

(١) «الْوَابِلُ الصَّيِّبُ مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ»، ابْنُ الْقَيِّمِ (ص ٦٣).

حينئذٍ، وَمَتَىٰ مَرِضَ وَسَقِمَ لَمْ يَجِدْ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، بَلْ يَسْتَحْلِي مَا فِيهِ هَلَاكُهُ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالْمَعَاصِي»[1].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ -:

«الْعَمَلُ لَهُ أَثَرٌ فِي الْقَلْبِ مِنْ نَفْعٍ وَضُرٍّ وَصَلَاحٍ قَبْلَ أَثَرِهِ فِي الْخَارِجِ، فَصَلَاحُهَا عَدْلٌ لَهَا وَفَسَادُهَا ظُلْمٌ لَهَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٧].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ لِلْحَسَنَةِ لَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ.

وَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ لَظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ، وَسَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَوَهَنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضًا فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطُّورُ: ٢١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [الْمُدَّثِّرُ: ٣٨].

وَقَالَ: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا

---

(١) «فَتْحُ الْبَارِي»: (١/ ٤٥).

شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٧٠].

وَ﴿ تُبْسَلَ ﴾: أَيْ تُرْتَهَنَ وَتُحْبَسَ وَتُؤْسَرَ.

كَمَا أَنَّ الْجَسَدَ إِذَا صَحَّ مِنْ مَرَضِهِ قِيلَ: قَدِ اعْتَدَلَ مِزَاجُهُ، وَالْمَرَضُ إِنَّمَا هُوَ بِإِخْرَاجِ الْمِزَاجِ، مَعَ أَنَّ الِاعْتِدَالَ الْمَحْضَ السَّالِمَ مِنَ الْأَخْلَاطِ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، لَكِنِ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ؛ فَهَكَذَا صِحَّةُ الْقَلْبِ وَصَلَاحُهُ فِي الْعَدْلِ، وَمَرَضُهُ مِنَ الزَّيْغِ وَالظُّلْمِ وَالِانْحِرَافِ»[1].

وَنَحْنُ نَطْرَحُ عَلَيْهِمُ السُّؤَالَ نَفْسَهُ مَعْكُوسًا:

---

(١) «أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ»، لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ (صَفْحَةُ ٧).

كَيْفَ لا يَأْمُرُنَا اللهُ بِعِبَادَتِهِ؟

فَالْخَالِقُ مُسْتَحِقٌّ لِعِبَادَةِ الْمَخْلُوقِ، فَلِمَاذَا لَا يَأْمُرُ الْخَالِقُ الْمَخْلُوقَ بِإِفْرَادِهِ جَلَّ وَعَلَا بِالْعِبَادَةِ؟!

وَلَعَلَّكَ تَذْكُرُ مَا تَكَلَّمْنَا عَنْهُ مِنْ أَنَّ الْخَالِقَ لَيْسَ كَالْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا يَدُورُ فِي نَفْسِهِ مَا يَدُورُ فِي نُفُوسِ خَلْقِهِ.

فَلَا يُحِبُّ عِبَادَةَ خَلْقِهِ لِنَفْسِ الْعِلَّةِ الَّتِي يُحِبُّ الْخَلْقُ؛ أَنْ يَسْمَعُوا الْمَدْحَ وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَحَاشَاهُ سُبْحَانَهُ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورَىٰ: ١١].

وَإِنَّمَا يَأْمُرُهُمْ بِإِفْرَادِهِ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لَهَا وَحْدَهُ، وَلِأَنَّ صَرْفَهَا لِغَيْرِهِ شِرْكٌ أَعْظَمُ وَظُلْمٌ أَكْبَرُ، وَلِأَنَّ فِيهَا صَلَاحَ النُّفُوسِ، وَصِحَّةَ الْقُلُوبِ، وَانْشِرَاحَ الصُّدُورِ، وَانْتِظَامَ الْحَيَاةِ، بِلَا ظُلْمٍ وَلَا جَوْرٍ وَلَا تَذَلُّلٍ لِغَيْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَالسُّؤَالُ الآنَ:

لِمَاذَا لا يَأْمُرُ الْخَلْقَ بِعِبَادَتِهِ سُبْحَانَهُ؟

الْجَوَابُ عَلَى ذَلِكَ:

لِأَنَّ الْمُسْتَشْكِلَ يُشَبِّهُ الْخَالِقَ بِالْخَلْقِ، وَيَظُنُّ أَنَّ نَفْسَهُ كَنُفُوسِهِمْ، وَيَدُورُ فِي نَفْسِهِ مَا يَدُورُ فِي نُفُوسِهِمْ.

وَأَنَّ مَا هُوَ مَذْمُومٌ عِنْدَ الْبَشَرِ يَكُونُ مَذْمُومًا فِي حَقِّ اللهِ جَلَّ وَعَلَا! وَهَذَا مِنْ أَجْهَلِ الْجَهْلِ؛ إِذْ هُوَ جَهْلٌ مُرَكَّبٌ.

فَصَاحِبُهُ يَضَعُ نَفْسَهُ حَكَمًا! - يَسْتَحْسِنُ وَيَسْتَقْبِحُ - عَلَىٰ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞ اللهُ جَلَّ وَعَلَا مُسْتَغْنٍ عَنْ عِبَادَةِ خَلْقِهِ لَهُ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ»[1]، فَاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ سُبْحَانَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْبَشَرِيَّةِ وُجُودٌ، بَلْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَسَائِرِ الْخَلْقِ وُجُودٌ، وَلَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ شَيْئًا سُبْحَانَهُ.

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

فَلَيْسَ لَهُ مُعِينٌ سُبْحَانَهُ، وَلَيْسَ لَهُ وَزِيرٌ سُبْحَانَهُ، وَلَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي!**

إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[١].

وَإِذَنْ فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَبَقِيَّةَ الْعِبَادِ لَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَضُرُّوهُ، وَكَذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَنْفَعُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فَهُوَ جَلَّ وَعَلَا مِنْ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ: أَنَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ؛ فَهُوَ الْغَنِيُّ عَنِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَهُوَ الْقَاهِرُ سُبْحَانَهُ، فَلَا يَصِلُ إِلَىٰ ضَرِّهِ مَخْلُوقٌ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ جَلَّ وَعَلَا مَخْلُوقٌ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [الْبَقَرَةُ: ١١٦، ١١٧].

فَمَنْ كَانَ غَنِيًّا عَنِ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ؛ فَهُوَ غَنِيٌّ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ عَنِ الِاحْتِيَاجِ وَالِافْتِقَارِ لِلثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ [فَاطِرُ: ١٣ - ١٥].

فَالْفَقْرُ فِي الْمَخْلُوقَاتِ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لَا تَنْفَكُّ عَنْهُمْ، فَهُمْ فُقَرَاءُ إِلَىٰ الْخَالِقِ دَائِمًا وَأَبَدًا، وَالْغِنَىٰ فِي اللهِ جَلَّ وَعَلَا صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لَا تَنْفَكُّ عَنْهُ سُبْحَانَهُ.

وَفَرْقٌ بَيْنَ مَحَبَّةِ الشَّيْءِ وَالِافْتِقَارِ إِلَيْهِ؛ فَاللهُ يُحِبُّ لِعِبَادِهِ أَلَّا يَظْلِمُوا أَنْفُسَهُمْ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ سُبْحَانَهُ، وَيُحِبُّ لَهُمْ أَنْ يُوَحِّدُوهُ سُبْحَانَهُ؛ فَيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ أَنْ يَكُونَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا مُحْتَاجًا إِلَىٰ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ مُفْتَقِرًا إِلَيْهَا، حَاشَاهُ سُبْحَانَهُ.

فَمَا الزَّمَنُ إِلَّا مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهَذَا الْكَوْنُ مَهْمَا كَانَ قَدِيمًا فَإِنَّ لَهُ أَوَّلَ، فَإِنْ كَانَ لَهُ أَوَّلُ وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الْأَوَّلُ بِلَا ابْتِدَاءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَكَيْفَ كَانَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا بِلَا عِبَادَةٍ وَلَا ثَنَاءٍ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْبَشَرِ قَبْلَ خَلْقِهِمْ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَوَّلُ بِلَا ابْتِدَاءٍ، آخِرُ بِلَا انْتِهَاءٍ؟!

فَلَمَّا كَانَ عُمْرُ الْكَوْنِ لَا يُسَاوِي شَيْئًا فِي وُجُودِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ دَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا لَا يَفْتَقِرُ إِلَىٰ عِبَادَةِ الْخَلْقِ بِجَمِيعِ أَجْنَاسِهِمْ، سُبْحَانَهُ! سُبْحَانَهُ! فَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٌ أَبَدًا   كَمَا الْغِنَىٰ أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي (١)

بَلْ إِنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا رَدَّ عَلَىٰ هَذِهِ الشُّبْهَةِ حِينَمَا بَيَّنَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَا خَلَقَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ إِلَّا لِيَعْبُدُوهُ؛ فَقَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦ - ٥٨].

فَإِنْ كَانَ اللهُ جَلَّوَعَلَا لَا يَتَحَصَّلُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ عَلَىٰ طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ، بَلْ هُوَ رَازِقُهُمْ وَهُوَ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ سُبْحَانَهُ، فَكَيْفَ يَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَلَاتِهِمْ وَذِكْرِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ لَهُ سُبْحَانَهُ؟!

وَأَكْثَرُ مَنْ يُصَلِّي يُصَلِّي سَاهِيًا غَافِلًا، وَأَكْثَرُ مَنْ يَذْكُرُ يَكُونُ لَاهِيًا لَاعِبًا، وَاللهُ جَلَّوَعَلَا مَعَ ذَلِكَ جَعَلَ لِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ مَا يُكَفِّرُ بِهِ عَنْهُمْ هَذَا السَّهْوَ وَهَذِهِ الْغَفْلَةَ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الآيَاتِ:

«﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: هَذِهِ الْغَايَةُ، الَّتِي خَلَقَ اللهُ الْجِنَّ

(١) «طَرِيقُ الْهِجْرَتَيْنِ»، لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص٧).

وَالْإِنْسَ لَهَا، وَبَعَثَ جَمِيعَ الرُّسُلِ يَدْعُونَ إِلَيْهَا؛ وَهِيَ عِبَادَتُهُ، الْمُتَضَمِّنَةُ لِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا سِوَاهُ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ مَعْرِفَةَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّ تَمَامَ الْعِبَادَةِ مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ، بَلْ كُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ مَعْرِفَةً لِرَبِّهِ؛ كَانَتْ عِبَادَتُهُ أَكْمَلَ؛ فَهَذَا الَّذِي خَلَقَ اللهُ الْمُكَلَّفِينَ لِأَجْلِهِ، فَمَا خَلَقَهُمْ لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِمْ.

فَمَا يُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا يُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُوهُ، تَعَالَىٰ اللهُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي عَنِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ أَحَدٍ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَإِنَّمَا جَمِيعُ الْخَلْقِ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ حَوَائِجِهِمْ وَمَطَالِبِهِمُ الضَّرُورِيَّةِ وَغَيْرِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾؛ أَيْ: كَثِيرُ الرِّزْقِ، الَّذِي مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزْقُهَا، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا» اهـ.

فَعَلَيْكَ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ مَحَبَّةِ الشَّيْءِ وَالِافْتِقَارِ إِلَيْهِ؛ فَاللهُ جَلَّوَعَلَا يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَهَذَا لَا يُنَافِي أُلُوهِيَّتَهُ سُبْحَانَهُ.

بَلْ هِيَ مِنْ كَمَالِ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ؛ لِأَنَّهُ يُحِبُّ بَذْلَ الشَّيْءِ لِمُسْتَحِقِّهِ وَمَنْعَهُ عَمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، فَإِذَا كَانَتِ الْعِبَادَةُ فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ وَنَفْيِ الشَّرِ مَا مَرَّ ذِكْرُهُ؛ فَهِيَ مُحَبَّبَةٌ لَهُ جَلَّوَعَلَا سُبْحَانَهُ، كَمَا أَنَّهُ يُحِبُّ الْعَدْلَ وَيُبْغِضُ الظُّلْمَ،

وَهَذَا مِنْ كَمَالِ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَمَحَبَّةُ الْمَخْلُوقِ لِلْخَالِقِ وَالتَّذَلُّلُ لَهُ وَالْخُضُوعُ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ؛ هِيَ الْمَقَامُ الْأَسْمَىٰ وَالْمَنْزِلَةُ الْعُلْيَا لِلْمَخْلُوقِ؛ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا صِلَةَ عِبَادَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَتَذَلُّلٍ.

فَعِبَادَةُ الْخَالِقِ هِيَ أَشْرَفُ وَظِيفَةٍ وَأَعْظَمُ عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ الْمَخْلُوقُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَلِمَ لَا وَهِيَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَسْمُو بِهِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ ذِكْرِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ لَهُ؟!

كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»(١).

وَلَمَّا كَانَتِ الْعِبَادَةُ مِنَ الْبَشَرِ هِيَ حَقُّهُ سُبْحَانَهُ، وَهِيَ وَاجِبُ الْمَخْلُوقَاتِ تُجَاهَهُ، يَقُومُونَ بِهَا اخْتِيَارًا لَا جَبْرًا وَلَا قَهْرًا، وَإِنَّمَا بِاخْتِيَارِهِمْ؛ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ كَانَتِ الْعِبَادَةُ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزُّمَرُ: ٧].

فَتَأَمَّلْ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾.

وَفِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾.

فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يُحِبُّ الْعِبَادَةَ مِنَ الْعَبْدِ **وَيَرْضَاهَا لَهُ؛** لِأَنَّهُ يُحِبُّهُ وَيُحِبُّ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، **وَلَا يَرْضَىٰ لَهُ الْكُفْرَ، وَلَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ: لَا يَرْضَىٰ مِنْهُ. وَإِنَّمَا قَالَ: لَا يَرْضَاهُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ ظُلْمٌ لِلنَّفْسِ، وَلِأَنَّ عَاقِبَتَهُ وَخِيمَةٌ.**

وَاللهُ يُحِبُّ مَنْ يَعْبُدُهُ وَيَشْكُرُهُ، وَيَصْرِفُ لَهُ الْعِبَادَةَ؛ فَيُحِبُّ مَنْ يَقُومُ بِهَا - أَيِ: الْعِبَادَةِ - مُخْلِصًا مُخْتَارًا، وَيُجَازِيهِ عَلَيْهَا جَزَاءً عَظِيمًا، فَيَعْبُدُهُ الْعَبْدُ فِي سَنَوَاتٍ لَا تَصِلُ إِلَىٰ خَمْسِينَ أَوْ سِتِّينَ عَامًا عَلَىٰ الْأَكْثَرِ؛ فَيُجَازِيهِ اللهُ عَلَيْهَا بِنَعِيمٍ مُقِيمٍ لَا يَنْفَدُ وَلَا يَنْتَهِي.

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ»:

«وَقَوْلُهُ: «يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»:

يَعْنِي: أَنَّ الْعِبَادَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُوصِلُوا إِلَىٰ اللهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ

فِي نَفْسِهِ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، لَا حَاجَةَ لَهُ بِطَاعَاتِ الْعِبَادِ، وَلَا يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا هُمْ يَنْتَفِعُونَ بِهَا، وَلَا يَتَضَرَّرُ بِمَعَاصِيهِمْ، وَإِنَّمَا هُمْ يَتَضَرَّرُونَ بِهَا؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٧٦]. وَقَالَ: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٤٤].

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَىٰ، وَلَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَضُرُّ اللهَ شَيْئًا».

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٣١]، وَقَالَ حَاكِيًا عَنْ مُوسَىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ٨]، وَقَالَ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ٩٧]، وَقَالَ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الْحَجُّ: ٣٧].

وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَتَّقُوهُ وَيُطِيعُوهُ، كَمَا أَنَّهُ يَكْرَهُ مِنْهُمْ أَنْ يَعْصُوهُ؛ وَلِهَذَا يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِينَ أَشَدَّ مِنْ فَرَحِ مَنْ ضَلَّتْ رَاحِلَتُهُ الَّتِي عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَطَلَبَهَا حَتَّىٰ أَعْيَىٰ وأَيِسَ مِنْهَا، وَاسْتَسْلَمَ لِلْمَوْتِ، وَأَيِسَ مِنَ الْحَيَاةِ، ثُمَّ غَلَبَتْهُ عَيْنُهُ فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ وَهِيَ

قَائِمَةٌ عِنْدَهُ. وَهَذَا أَعْلَىٰ مَا يَتَصَوَّرُهُ الْمَخْلُوقُ مِنَ الْفَرَحِ، هَذَا كُلُّهُ مَعَ غِنَاهُ عَنْ طَاعَاتِ عِبَادِهِ وَتَوْبَاتِهِمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّهُ إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيْهِمْ دُونَهُ.

وَلَكِنْ هَذَا مِنْ كَمَالِ جُودِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَىٰ عِبَادِهِ، وَمَحَبَّتِهِ لِنَفْعِهِمْ، وَدَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُمْ، فَهُوَ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْرِفُوهُ وَيُحِبُّوهُ وَيَخَافُوهُ وَيَتَّقُوهُ وَيُطِيعُوهُ وَيَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ»[١].

---

(١) ابْنُ رَجَبٍ، «جَامِعُ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ» (ص ٢٢٦).

لِمَاذَا يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فُصِّلَتْ: ٨]

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فَالتَّوْحِيدُ ضِدُّ الشِّرْكِ، فَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللهِ، فَعَبَدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ **كَانَ مُوَحِّدًا**.

وَمِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ: التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالرَّجَاءُ لَهُ، وَالْخَوْفُ مِنْهُ؛ فَهَذَا **يَخْلُصُ بِهِ الْعَبْدُ مِنَ الشِّرْكِ**. وَإِعْطَاءُ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ وَتَرْكُ الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ؛ **يَخْلُصُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ ظُلْمِهِمْ**. وَبِطَاعَةِ رَبِّهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ **يَخْلُصُ الْعَبْدُ مِنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ**، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**»، **فَالنِّصْفَانِ يَعُودُ نَفْعُهُمَا إِلَىٰ الْعَبْدِ**».

[**قُلْتُ**: وَنَصُّ الْحَدِيثِ عِنْدَ مُسْلِمٍ كَمَا يَلِي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَلَّىٰ صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ**

الْقُرْآنِ؛ فَهِيَ خِدَاجٌ - ثَلَاثًا - **غَيْرُ تَمَامٍ**».

فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ. فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾؛ **قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: حَمِدَنِي عَبْدِي.**

وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾؛ **قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي.**

وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾. **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي** - وَقَالَ مَرَّةً: **فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي** -.

فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.**

فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الْفَاتِحَةُ: ٢-٧]؛ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»اهـ

قُلْتُ: وَمعنىٰ كَلَام شَيْخِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْتَفِعُ بِالنِّصْفَيْنِ مَعًا؛ فَإِنَّهُ إِذَا حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ؛ عَادَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِذِكْرِ اللهِ لَهُ؛ فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: «**حَمِدَنِي عَبْدِي، أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي**»، وَهَذَا فِيهِ رِفْعَةٌ لِشَأْنِ الْعَبْدِ بِلَا شَكٍّ.

وَإِذَا مَجَّدَ اللهَ؛ عَادَ عَلَيْهِ ذَلِكَ أَيْضًا بِأَنْ يَذْكُرَهُ رَبُّهُ، وَإِذَا بَذَلَ الْعِبَادَةَ للهِ وَطَلَبَ الْإِعَانَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَعُودُ عَلَيْهِ أَيْضًا بِكُلِّ خَيْرٍ؛ إِذْ يُجِيبُهُ رَبُّهُ جَلَّ وَعَلَا بِقَوْلِهِ: «**وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»؛ يَعْنِي أَنَّهُ سَيُعِينُهُ سُبْحَانَهُ.

وَإِذَا طَلَبَ الْهِدَايَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ يُعْطِيهِ إِيَّاهَا، وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَدِ انْتَفَعَ بِذَلِكَ انْتِفَاعًا عَظِيمًا].

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «وَكَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الدُّعَاءِ»: «**يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعٌ: وَاحِدَةٌ لِي، وَوَاحِدَةٌ لَكَ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِي. فَالَّتِي لِي: تَعْبُدُنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، وَالَّتِي لَكَ: عَمَلُكَ أَجْزِيكَ بِهِ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَالَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ: فَمِنْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَيَّ الْإِجَابَةُ، وَالَّتِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِي: فَأْتِ إِلَيْهِمْ مَا تُحِبُّ أَنْ يُؤْتُوهُ إِلَيْكَ**».

[**قُلْتُ**: فَالْعَبْدُ يَعُودُ عَلَيْهِ مِنَ النَّفْعِ مَا يَعُودُ؛ فَيَعُودُ عَلَيْهِ مِمَّا لَهُ وَمِمَّا عَلَيْهِ النَّفْعُ، فَالتَّوْحِيدُ الَّذِي عَلَيْهِ يَخْلُصُ بِهِ مِنَ الشِّرْكِ؛ فَيَكُونُ حُرًّا لَا يَعْبُدُ مَخْلُوقًا، ثُمَّ يُجَازِيهِ اللهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَزَاءِ الْأَوْفَىٰ].

وَاللهُ يُحِبُّ النِّصْفَيْنِ، وَيُحِبُّ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَمَا يُعْطِيهِ اللهُ الْعَبْدَ مِنَ الْإِعَانَةِ

وَالْهِدَايَةِ؛ هُوَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَهُوَ وَسِيلَةٌ إِلَىٰ ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ.

وَهُوَ إِنَّمَا يُحِبُّهُ لِكَوْنِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ عِبَادَتِهِ، وَالْعَبْدُ يَطْلُبُ مَا يَحْتَاجُ أَوَّلًا، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ الْإِعَانَةِ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ وَإِلَىٰ الْهِدَايَةِ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ وَبِذَلِكَ يَصِلُ إِلَىٰ الْعِبَادَةِ.

فَهُوَ يَطْلُبُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَوَّلًا؛ لِيَتَوَسَّلَ بِهِ إِلَىٰ مَحْبُوبِ الرَّبِّ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهُ.

كَذَلِكَ قَوْلُهُ: «عَمَلُكَ أَجْزِيكَ بِهِ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ»؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ الثَّوَابَ الَّذِي هُوَ جَزَاءُ الْعَمَلِ، فَالْعَبْدُ إِنَّمَا يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢٨٦].

ثُمَّ إِذَا طَلَبَ الْعِبَادَةَ: فَإِنَّمَا يَطْلُبُهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ نَافِعَةٌ لَهُ، مُحَصِّلَةٌ لِسَعَادَتِهِ، مُحَصِّنَةٌ لَهُ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ.

فَلَا يَطْلُبُ الْعَبْدُ قَطُّ إِلَّا مَا فِيهِ حَظٌّ لَهُ، وَإِنْ كَانَ الرَّبُّ يُحِبُّ ذَلِكَ؛ فَهُوَ يَطْلُبُهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُلَائِمٌ لَهُ؛ فَمَنْ عَبَدَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا: أَحَبَّهُ وَأَثَابَهُ، فَيَحْصُلُ لِلْعَبْدِ مَا يُحِبُّهُ مِنَ النِّعَمِ تَبَعًا لِمَحْبُوبِ الرَّبِّ [جَلَّ وَعَلَا].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾:

۞ [وَهَذَا كَالْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي:]

الْبَائِعُ يُرِيدُ مِنَ الْمُشْتَرِي أَوَّلًا الثَّمَنَ، وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ: إِرَادَةُ تَسْلِيمِ الْمَبِيعِ.

وَالْمُشْتَرِي يُرِيدُ السِّلْعَةَ؛ وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ: إِرَادَةُ إِعْطَاءِ الثَّمَنِ.

فَالرَّبُّ يُحِبُّ أَنْ يُحَبَّ، وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ: أَنْ يُحِبَّ مَنْ لَا تَحْصُلُ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِهِ.

۞ [الإِنْسَانُ خُلِقَ مُحْتَاجًا إِلَى جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ:]

... فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ مُحْتَاجًا إِلَىٰ جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ، وَنَفْسُهُ مُرِيدَةٌ دَائِمًا، وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُرَادٍ يَكُونُ غَايَةَ مَطْلُوبِهَا؛ لِتَسْكُنَ إِلَيْهِ، وَتَطْمَئِنَّ بِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ.

۞ [فَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إِلَّا بِتَوْحِيدِهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ سُبْحَانَهُ:]

فَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إِلَّا بِهِ، وَلَا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٢].

فَكُلُّ مَأْلُوهٍ سِوَاهُ يَحْصُلُ بِهِ الْفَسَادُ، وَلَا يَحْصُلُ صَلَاحُ الْقُلُوبِ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

۞ [**تَمَامُ غِنَى الْعَبْدِ بِالافْتِقَارِ الْكَامِلِ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ، وَالاسْتِغْنَاءِ الْكَامِلِ عَنِ الْخَلْقِ:**]

فَإِذَا لَمْ تَكُنِ الْقُلُوبُ مُخْلِصَةً لِلَّهِ الدِّينَ: عَبَدَتْ غَيْرَهُ؛ مِنَ الْآلِهَةِ الَّتِي يَعْبُدُهَا أَكْثَرُ النَّاسِ مِمَّا رَضُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ؛ فَأَشْرَكَتْ بِاللهِ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ؛ فَتَعْبُدُ غَيْرَهُ وَتَسْتَعِينُ بِهِ؛ لِجَهْلِهَا بِسَعَادَتِهَا الَّتِي تَنَالُهَا بِعِبَادَةِ خَالِقِهَا وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ:

فَبِالْعِبَادَةِ لَهُ تَسْتَغْنِي عَنْ مَعْبُودٍ آخَرَ.

وَبِالِاسْتِعَانَةِ بِهِ تَسْتَغْنِي عَنِ الِاسْتِعَانَةِ بِالْخَلْقِ.

۞ [**غِنَى الْعَبْدِ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ:**]

وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْعَبْدُ كَذَلِكَ: كَانَ مُذْنِبًا مُحْتَاجًا، وَإِنَّمَا غِنَاهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ، وَهَذَا حَالُ الْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّهُ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُذْنِبٌ خَطَّاءٌ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ رَبِّهِ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي يُسْدِي مَغَافِرَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الاسْتِغْفَارِ مِنْ ذُنُوبِهِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [مُحَمَّدٌ: ١٩].

فَبِالتَّوْحِيدِ يَقْوَىٰ الْعَبْدُ وَيَسْتَغْنِي، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَىٰ النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ، وَبِالِاسْتِغْفَارِ يَغْفِرُ لَهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ عَذَابَهُ؛ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَالُ: ٣٣].

فَلَا يَزُولُ فَقْرُ الْعَبْدِ وَفَاقَتُهُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، وَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ؛ لَمْ يَزَلْ فَقِيرًا مُحْتَاجًا مُعَذَّبًا فِي طَلَبِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ.

وَاللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّسَاءُ: ٤٨]. إِذَا حَصَلَ مَعَ التَّوْحِيدِ الِاسْتِغْفَارُ حَصَلَ لَهُ غِنَاهُ وَسَعَادَتُهُ، وَزَالَ عَنْهُ مَا يُعَذِّبُهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[1] اهـ.

إِنَّ العَبْدَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ هَذَا الْإِخْلَاصِ الدَّقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ الصَّافِي، وَتَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ فِي مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ لِكَيْ يَنْجُوَ مِنْ عِبَادَةِ المَخْلُوقَاتِ .

فَهُوَ إِنْ كَانَ يَهْرَبُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا لِلْبَشَرِ فِي أُمُورِ الرِّزْقِ وَالْمَعِيشَةِ؛ فَكَيْفَ لَا يَهْرَبُ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِمَخْلُوقٍ يَصْرِفُ لَهُ الْعِبَادَةَ مِنْ دُونِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؟!

۞ نَعْبُدُ اللهَ امْتِثَالًا لِأَمْرِهِ جَلَّ وَعَلَا:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦ – ٥٨].

فَإِذَا كَانَ اللهُ خَالِقَنَا وَمَالِكَنَا وَرَازِقَنَا؛ فَيَجِبُ امْتِثَالُ أَوَامِرِهِ سُبْحَانَهُ،

(١) «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَىٰ» (١/ ٥٢ – ٥٦).

وَاجْتِنَابُ مَا نَهَىٰ عَنْهُ سُبْحَانَهُ.

فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ أَنْ يَرُدَّ أَوَامِرَ سَيِّدِهِ وَمَالِكِهِ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ لِسَيِّدٍ مِنْ سَادَاتِ الْبَشَرِ لَا يَسْتَطِيعُ لِأَمْرِهِ رَدًّا، وَلَوْ كَانَتْ أَوَامِرُهُ عَبَثِيَّةً وَمُرْهِقَةً لِلْعَبْدِ بِلَا طَائِلٍ وَلَا نَفْعٍ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ رَدَّ أَوَامِرَ سَيِّدِهِ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ سَيِّدَهُ لَمْ يُقَدِّمْ لَهُ نَفْعًا، وَلَمْ يَبْذُلْ لَهُ مَعْرُوفًا، وَإِنَّمَا بَذَلَ الْمَالَ لِمَالِكِهِ الْأَوَّلِ فَاشْتَرَاهُ مِنْهُ، وَاشْتَرَىٰ بِذَلِكِ طَاعَتَهُ وَانْقِيَادَهُ، وَإِنْ رَفَضَ الْعَبْدُ الِانْقِيَادَ لِسَيِّدِهِ؛ كَانَ عَبْدًا آبِقًا شَاذًّا، يُعاقَبُ عَلَىٰ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا أَشَدَّ عِقَابٍ.

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ عَبْدًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ خَالِقِهِ وَمُوجِدِهِ مِنَ الْعَدَمِ، وَالْمُنْعِمِ عَلَيْهِ بِنِعَمٍ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَىٰ؟!

إِنَّ امْتِثَالَ الْبَشَرِ لِأَوَامِرِ الرَّبِّ الْعَظِيمِ أَوْكَدُ مِنَ امْتِثَالِ الْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ لِأَوَامِرِ مَالِكِهِ مِنَ الْبَشَرِ؛ إِذْ مِلْكِيَّةُ الْبَشَرِ لِلْبَشَرِ مِلْكِيَّةٌ نَاقِصَةٌ، وَأَمَّا الرَّبُّ جَلَّوَعَلَا فَهُوَ مَالِكُ الْمُلْكِ، فَيَمْلِكُ الْعَبْدَ وَسَيِّدَهُ وَالْأَمَةَ وَرَبَّتَهَا.

۞ نَعْبُدُ اللهَ جَلَّوَعَلَا حُبًّا لَهُ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ

ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٦٥].

فَمِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ: شِرْكُ الْمَحَبَّةِ:

لِأَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ - الَّتِي هِيَ مَحَبَّةُ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا - لَوْ أَشْرَكَ الْإِنْسَانُ فِيهَا مَعَ اللهِ سِوَاهُ فَأَحَبَّهُ كَحُبِّ اللهِ؛ كَانَ مُشْرِكًا بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَاللهُ لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ -:

«إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ فِي الْقَلْبِ حُبُّ الْمَحْبُوبِ الْأَعْلَىٰ [سُبْحَانَهُ]، وَعِشْقُ الصُّوَرِ أَبَدًا، بَلْ هُمَا ضِدَّانِ لَا يَتَلَاقَيَانِ، بَلْ لَابُدَّ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ.

فَمَنْ كَانَتْ قُوَّةُ حُبِّهِ كُلُّهَا لِلْمَحْبُوبِ الْأَعْلَىٰ، الَّذِي مَحَبَّةُ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ، وَعَذَابٌ عَلَىٰ صَاحِبِهَا؛ صَرَفَهُ ذَلِكَ عَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ، وَإِنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُحِبَّهُ إِلَّا لِأَجْلِهِ، أَوْ لِكَوْنِهِ وَسِيلَةً إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ، أَوْ قَاطِعًا لَهُ عَمَّا يُضَادُّ مَحَبَّتَهُ وَيُنْقِصُهَا، وَالْمَحَبَّةُ الصَّادِقَةُ تَقْتَضِي تَوْحِيدَ الْمَحْبُوبِ، وَأَلَّا يُشْرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي مَحَبَّتِهِ.

وَإِذَا كَانَ الْمَحْبُوبُ مِنَ الْخَلْقِ يَأْنَفُ وَيَغَارُ أَنْ يُشْرِكَ مَعَهُ مَحَبَّةَ غَيْرِهِ فِي مَحَبَّتِهِ، وَيَمْقُتُهُ لِذَلِكَ، وَيُبْعِدُهُ لَا يُحْظِيهِ بِقُرْبِهِ، وَيَعُدُّهُ كَاذِبًا فِي دَعْوَىٰ

مَحَبَّتِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ أَهْلًا لِصَرْفِ كُلِّ قُوَّةِ الْمَحَبَّةِ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ بِالْحَبِيبِ الْأَعْلَىٰ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْمَحَبَّةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَحَبَّةٍ لِغَيْرِهِ فَهِيَ عَذَابٌ عَلَىٰ صَاحِبِهَا وَوَبَالٌ؟! وَلِهَذَا لَا يَغْفِرُ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ فِي هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»[1].

فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مُؤْمِنًا مُوَحِّدًا لِلَّهِ جَلَّوَعَلَا تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ؛ فَهُوَ مُحِبٌّ لِلَّهِ جَلَّوَعَلَا مَحَبَّةً لَا يُشْرِكُ فِيهَا مَعَهُ سِوَاهُ جَلَّوَعَلَا.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ:

«وَالْمَحْبُوبَاتُ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ؛ قِسْمٍ يُحَبُّ لِنَفْسِهِ، وَقِسْمٌ يُحَبُّ لِغَيْرِهِ؛ إِذْ لَا بُدَّ مِنْ مَحْبُوبٍ يُحَبُّ لِنَفْسِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ شُرِعَ أَنْ يُحَبَّ لِذَاتِهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَكَذَلِكَ التَّعْظِيمُ لِذَاتِهِ؛ تَارَةً يُعَظَّمُ الشَّيْءُ لِنَفْسِهِ، وَتارَةً يُعَظَّمُ لِغَيْرِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يسْتَحِقُّ التَّعْظِيمُ لِذَاتِهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ.

وَكُلُّ مَا أَمَرَ اللهُ أَنْ يُحَبَّ وَيُعَظَّمَ فَإِنَّمَا مَحَبَّتُهُ لِلَّهِ، وَتَعْظِيمُهُ عبادَةٌ لِلَّهِ، فَاللهُ هُوَ الْمَحْبُوبُ الْمُعَظَّمُ فِي الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ الْمَقْصُودِ الْمُسْتَقِرِّ الَّذِي إِلَيْهِ الْمُنْتَهَىٰ، وَأَمَّا مَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَيُحَبُّ لِأَجْلِ اللهِ؛ أَيْ: لِأَجْلِ مَحَبَّةِ العَبْدِ

(١) «الْجَوَابُ الْكَافِي»، (صَفْحَةُ ١٨١، وَمَا بَعْدَهَا).

لِلَّهِ يُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللهُ، فَمِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ الشَّيْءِ مَحَبَّةُ مَحْبُوبِ الْمَحْبُوبِ، وَبُغْضُ بَغِيضِهِ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا الحَدِيثُ: «**أَوْثَقُ عُرَىٰ الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ**».

وَفِي السُّنَنِ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَىٰ لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»[1].

❁ نَعْبُدُهُ سُبْحَانَهُ مَحَبَّةً لَهُ جَلَّ وَعَلَا مَعَ رَجَاءِ الثَّوَابِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْعِقَابِ:

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ -: «[دَرَجَاتُ حُرُمَاتِ اللهِ]: [الدَّرَجَةُ الْأُولَىٰ تَعْظِيمُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ]:

قَالَ: وَهِيَ عَلَىٰ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: [**الدَّرَجَةُ الْأُولَىٰ تَعْظِيمُ الْأَمْرِ بِدُونِ خَوْفٍ مِنَ الْعِقَابِ وَلَا رَجَاءٍ لِلْأَجْرِ وَلَا رِيَاءٍ لِلْخَلْقِ**]:

تَعْظِيمُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَا خَوْفًا مِنَ الْعُقُوبَةِ؛ فَتَكُونَ خُصُومَةً لِلنَّفْسِ، وَلَا طَلَبًا لِلْمَثُوبَةِ؛ فَيَكُونَ مُسْتَشْرِفًا لِلْأُجْرَةِ، وَلَا مُشَاهِدًا لِأَحَدٍ؛ فَيَكُونَ مُتَزَيِّنًا بِالْمُرَاءَاةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ كُلَّهَا مِنْ شُعَبِ عِبَادَةِ النَّفْسِ.

هَذَا الْمَوْضِعُ يَكْثُرُ فِي كَلَامِ الْقَوْمِ، وَالنَّاسُ بَيْنَ مُعَظِّمٍ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ،

---

(١) «جَامِعُ الرَّسَائِلِ»، لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ (٢/ ٢٣٧).

مُعْتَقِدٍ أَنَّ هَذَا أَرْفَعُ دَرَجَاتِ الْعُبُودِيَّةِ: أَنْ لَا يَعْبُدَ اللهَ وَيَقُومَ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، وَلَا طَمَعًا فِي ثَوَابِهِ.

فَإِنَّ هَذَا وَاقِفٌ مَعَ غَرَضِهِ وَحَظِّ نَفْسِهِ، وَأَنَّ الْمَحَبَّةَ تَأْبَىٰ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْمُحِبَّ لَا حَظَّ لَهُ مَعَ مَحْبُوبِهِ، فَوُقُوفُهُ مَعَ حَظِّهِ عِلَّةٌ فِي مَحَبَّتِهِ، وَأَنَّ طَمَعَهُ فِي الثَّوَابِ تَطَلُّعٌ إِلَىٰ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ بِعَمَلِهِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ أُجْرَةً.

فَفِي هَذَا آفَتَانِ: تَطَلُّعُهُ إِلَىٰ الْأُجْرَةِ، وَإِحْسَانُ ظَنِّهِ بِعَمَلِهِ؛ إِذْ تَطَلُّعُهُ إِلَىٰ اسْتِحْقَاقِهِ الْأَجْرَ، وَخَوْفُهُ مِنَ الْعِقَابِ: خُصُومَةٌ لِلنَّفْسِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يُخَاصِمُهَا إِذَا خَالَفَتْ، وَيَقُولُ: أَمَا تَخَافِينَ النَّارَ، وَعَذَابَهَا، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا؟! فَلَا تَزَالُ الْخُصُومَةُ بِذَلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ.

وَمِنْ وَجْهٍ آخَرَ أَيْضًا: وَهُوَ أَنَّهُ كَالْمُخَاصِمِ عَنْ نَفْسِهِ، الدَّافِعِ عَنْهَا خَصْمَهُ الَّذِي يُرِيدُ هَلَاكَهُ، وَهُوَ عَيْنُ الِاهْتِمَامِ بِالنَّفْسِ، وَالِالْتِفَاتِ إِلَىٰ حُظُوظِهَا؛ مُخَاصَمَةً عَنْهَا، وَاسْتِدْعَاءً لِمَا تَلْتَذُّ بِهِ.

وَلَا يُخَلِّصُهُ مِنْ هَذِهِ الْمُخَاصَمَةِ، وَذَلِكَ الِاسْتِشْرَافِ؛ إِلَّا تَجْرِيدُ الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْ كُلِّ عِلَّةٍ.

بَلْ يَقُومُ بِهِ تَعْظِيمًا لِلْآمِرِ النَّاهِي، وَأَنَّهُ أَهْلٌ أَنْ يُعْبَدَ، وَتُعَظَّمَ حُرُمَاتُهُ؛

فَهُوَ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَالتَّعْظِيمَ وَالْإِجْلَالَ لِذَاتِهِ، كَمَا فِي الْأَثَرِ الْإِسْرَائِيلِيِّ: «لَوْ لَمْ أَخْلُقْ جَنَّةً وَلَا نَارًا، أَمَا كُنْتُ أَهْلًا أَنْ أُعْبَدَ؟!».

وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ:

هَبِ الْبَعْثَ لَمْ تَأْتِنَا رُسْلُهُ ... وَجَاحِمَةَ النَّارِ لَمْ تُضْرَمِ

أَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ الْمُسْتَحَقِّ ... عَلَىٰ ذَوِي الْوَرَىٰ الشُّكْرُ لِلْمُنْعِمِ؟

فَالنُّفُوسُ الْعَلِيَّةُ الزَّكِيَّةُ تَعْبُدُهُ؛ لِأَنَّهُ أَهْلٌ أَنْ يُعْبَدَ وَيُجَلَّ وَيُحَبَّ وَيُعَظَّمَ؛ فَهُوَ لِذَاتِهِ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبَادَةِ.

قَالُوا: وَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ كَأَجِيرِ السُّوءِ؛ إِنْ أُعْطِيَ أَجْرَهُ عَمِلَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَعْمَلْ؛ فَهَذَا عَبْدُ الْأُجْرَةِ لَا عَبْدُ الْمَحَبَّةِ وَالْإِرَادَةِ.

قَالُوا: وَالْعُمَّالُ شَاخِصُونَ إِلَىٰ مَنْزِلَتَيْنِ: مَنْزِلَةِ الْآخِرَةِ، وَمَنْزِلَةِ الْقُرْبِ مِنَ الْمُطَاعِ.

قَالَ تَعَالَىٰ فِي حَقِّ نَبِيِّهِ دَاوُدَ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾ [ص: ٢٥].

فَالزُّلْفَىٰ: مَنْزِلَةُ الْقُرْبِ، **وَحُسْنُ الْمَآبِ:** حُسْنُ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يُونُس: ٢٦]، **وَالْحُسْنَىٰ:** الْجَزَاءُ. **وَالزِّيَادَةُ:** مَنْزِلَةُ الْقُرْبِ؛ وَلِهَذَا فُسِّرَتْ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَهَذَانِ هُمَا اللَّذَانِ وَعَدَهُمَا فِرْعَوْنُ لِلسَّحَرَةِ إِنْ غَلَبُوا مُوسَىٰ؛ فَقَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الْأَعْرَافُ: ١١٣، ١١٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٢].

قَالُوا: وَالْعَارِفُونَ عَمَلُهُمْ عَلَىٰ الْمَنْزِلَةِ وَالدَّرَجَةِ، وَالْعُمَّالُ عَمَلُهُمْ عَلَىٰ الثَّوَابِ وَالْأُجْرَةِ، وَشَتَّانَ مَا بَيْنَهُمَا.

وَطَائِفَةٌ ثَانِيَةٌ تَجْعَلُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ شَطَحَاتِ الْقَوْمِ وَرُعُونَاتِهِمْ، وَتَحْتَجُّ بِأَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالصِّدِّيقِينَ، وَدُعَائِهِمْ وَسُؤَالِهِمْ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ بِخَوْفِهِمْ مِنَ النَّارِ، وَرَجَائِهِمْ لِلْجَنَّةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي حَقِّ خَوَاصِّ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَبَدَهُمُ الْمُشْرِكُونَ: أَنَّهُمْ ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٥٧] - كَمَا تَقَدَّمَ -، وَقَالَ عَنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٨٩]، إِلَىٰ أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٩٠].

أَيْ: رَغَبًا فِيمَا عِنْدَنَا، وَرَهَبًا مِنْ عَذَابِنَا. وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عَائِدٌ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ؛ عِنْدَ عَامَّةِ الْمُفَسِّرِينَ.

وَالرَّغَبُ وَالرَّهَبُ: رَجَاءُ الرَّحْمَةِ، وَالْخَوْفُ مِنَ النَّارِ؛ عِنْدَهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ هُمْ خَوَاصُّ خَلْقِهِ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ، وَجَعَلَ مِنْهَا: اسْتِعَاذَتَهُمْ بِهِ مِنَ النَّارِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الْفُرْقَانُ: ٦٥، ٦٦].

وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ: أَنَّهُمْ تَوَسَّلُوا إِلَيْهِ بِإِيمَانِهِمْ أَنْ يُنْجِيَهُمْ مِنَ النَّارِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٦].

فَجَعَلُوا أَعْظَمَ وَسَائِلِهِمْ إِلَيْهِ: وَسِيلَةَ الْإِيمَانِ، وَأَنْ يُنْجِيَهُمْ مِنَ النَّارِ.

وَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ سَادَاتِ الْعَارِفِينَ أُولِي الْأَلْبَابِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَهُ جَنَّتَهُ، وَيَتَعَوَّذُونَ بِهِ مِنْ نَارِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٩٠]؛ الْآيَاتُ إِلَىٰ آخِرِهَا. وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْمَوْعُودَ بِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ: هِيَ الْجَنَّةُ الَّتِي سَأَلُوهَا.

وَقَالَ عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٨٢، ٨٣]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٨٧- ٨٩]؛ فَسَأَلَ اللهَ الْجَنَّةَ، وَاسْتَعَاذَ بِهِ مِنَ النَّارِ؛ وَهُوَ الْخِزْيُ يَوْمَ الْبَعْثِ.

وَأَخْبَرَنَا سُبْحَانَهُ عَنِ الْجَنَّةِ: أَنَّهَا كَانَتْ وَعْدًا عَلَيْهِ مَسْئُولًا؛ أَيْ يَسْأَلُهُ إِيَّاهَا عِبَادُهُ وَأَوْلِيَاؤُهُ.

وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ: أَنْ يَسْأَلُوا لَهُ فِي وَقْتِ الْإِجَابَةِ - عُقَيْبَ الْأَذَانِ - أَعْلَىٰ مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَخْبَرَ: أَنَّ مَنْ سَأَلَهَا لَهُ حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتُهُ.

وَقَالَ لَهُ - ﷺ - سُلَيْمٌ الْأَنْصَارِيُّ: أَمَا إِنِّي أَسْأَلُ اللهَ الْجَنَّةَ، وَأَسْتَعِيذُ بِهِ مِنَ النَّارِ، لَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ؛ فَقَالَ: «**أَنَا وَمُعَاذٌ حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ**».

وَفِي الصَّحِيحِ - فِي حَدِيثِ الْمَلَائِكَةِ السَّيَّارَةِ الْفُضَّلِ عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ -: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَسْأَلُهُمْ عَنْ عِبَادِهِ - وَهُوَ أَعْلَمُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -؛ **فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاكَ مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ يُهَلِّلُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ،**

وَيُمَجِّدُونَكَ. فَيَقُولُ عَزَّوَجَلَّ: **وَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَا يَا رَبِّ مَا رَأَوْكَ. فَيَقُولُ** عَزَّوَجَلَّ: **كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا لَكَ أَشَدَّ تَمْجِيدًا. قَالُوا: يَا رَبِّ، وَيَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا وَعِزَّتِكَ مَا رَأَوْهَا. فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا لَكَانُوا لَهَا أَشَدَّ طَلَبًا. قَالُوا: وَيَسْتَعِيذُونَ بِكَ مِنَ النَّارِ. فَيَقُولُ** عَزَّوَجَلَّ: **وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا وَعِزَّتِكَ مَا رَأَوْهَا. فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا لَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا هَرَبًا. فَيَقُولُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَعَذْتُهُمْ مِمَّا اسْتَعَاذُوا**».

وَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ مَمْلُوءَانِ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بِسُؤَالِ الْجَنَّةِ وَرَجَائِهَا، وَالِاسْتِعَاذَةِ مِنَ النَّارِ، وَالْخَوْفِ مِنْهَا.

قَالُوا: وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنَ النَّارِ**». وَقَالَ لِمَنْ سَأَلَهُ مُرَافَقَتَهُ فِي الْجَنَّةِ: «**أَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**».

قَالُوا: وَالْعَمَلُ عَلَىٰ طَلَبِ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ مَقْصُودُ الشَّارِعِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ لِيَكُونَا دَائِمًا عَلَىٰ ذِكْرٍ مِنْهُمَا فَلَا يَنْسَوْنَهُمَا، وَلِأَنَّ الْإِيمَانَ بِهِمَا شَرْطٌ فِي النَّجَاةِ، وَالْعَمَلَ عَلَىٰ حُصُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ هُوَ مَحْضُ الْإِيمَانِ.

قَالُوا: وَقَدْ حَضَّ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ وَأُمَّتَهُ، فَوَصَفَهَا وَجَلَّاهَا لَهُمْ لِيَخْطُبُوهَا، وَقَالَ: «**أَلَا مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ؟ فَإِنَّهَا - وَرَبِّ الْكَعْبَةِ - نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ، وَفَاكِهَةٌ نَضِيجَةٌ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ**» - الْحَدِيثُ -، فَقَالَ الصَّحَابَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا. فَقَالَ: «**قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللهُ**».

وَلَوْ ذَهَبْنَا نَذْكُرُ مَا فِي السُّنَّةِ مِنْ قَوْلِهِ: مَنْ عَمِلَ كَذَا وَكَذَا أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ؛ تَحْرِيضًا عَلَىٰ عَمَلِهِ لَهَا، وَأَنْ تَكُونَ هِيَ الْبَاعِثَةَ عَلَىٰ الْعَمَلِ؛ لَطَالَ ذَلِكَ جِدًّا، وَذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ.

قَالُوا: فَكَيْفَ يَكُونُ الْعَمَلُ لِأَجْلِ الثَّوَابِ وَخَوْفِ الْعِقَابِ مَعْلُولًا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَرِّضُ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: مَنْ فَعَلَ كَذَا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، وَ«**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ؛ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ**»، وَ«**مَنْ كَسَا مُسْلِمًا عَلَىٰ عُرْيٍ؛ كَسَاهُ اللهُ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ**»، وَ«**عَائِدُ الْمَرِيضِ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ**»، وَالْحَدِيثُ مَمْلُوءٌ مِنْ ذَلِكَ؟! أَفَتَرَاهُ يُحَرِّضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَطْلَبٍ مَعْلُولٍ نَاقِصٍ، وَيَدَعُ الْمَطْلَبَ الْعَالِي الْبَرِيءَ مِنْ شَوَائِبِ الْعِلَلِ لَا يُحَرِّضُهُمْ عَلَيْهِ؟!

قَالُوا: وَأَيْضًا فَاللهُ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَسْأَلُوهُ جَنَّتَهُ، وَيَسْتَعِيذُوا بِهِ مِنْ نَارِهِ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ يَغْضَبْ عَلَيْهِ، وَأَعْظَمُ مَا سُئِلَ الْجَنَّةُ، وَأَعْظَمُ مَا اسْتُعِيذَ بِهِ مِنَ النَّارِ.

فَالْعَمَلُ لِطَلَبِ الْجَنَّةِ مَحْبُوبٌ لِلرَّبِّ، مَرْضِيٌّ لَهُ، وَطَلَبُهَا عُبُودِيَّةٌ لِلرَّبِّ، وَالْقِيَامُ بِعُبُودِيَّتِهِ كُلِّهَا أَوْلَىٰ مِنْ تَعْطِيلِ بَعْضِهَا.

قَالُوا: وَإِذَا خَلَا الْقَلْبُ مِنْ مُلَاحَظَةِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَرَجَاءِ هَذِهِ، وَالْهَرَبِ مِنْ هَذِهِ؛ فَتَرَتْ عَزَائِمُهُ، وَضَعُفَتْ هِمَّتُهُ، وَوَهَىٰ بَاعِثُهُ. وَكُلَّمَا كَانَ أَشَدَّ طَلَبًا لِلْجَنَّةِ، وَعَمَلًا لَهَا؛ كَانَ الْبَاعِثُ لَهُ أَقْوَىٰ، وَالْهِمَّةُ أَشَدَّ، وَالسَّعْيُ أَتَمَّ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالذَّوْقِ.

وَقَالُوا: وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مَطْلُوبًا لِلشَّارِعِ لَمَا وَصَفَ الْجَنَّةَ لِلْعِبَادِ، وَزَيَّنَهَا لَهُمْ، وَعَرَضَهَا عَلَيْهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ تَفَاصِيلِ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ عُقُولُهُمْ مِنْهَا، وَمَا عَدَاهُ أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُجْمَلًا؛ كُلُّ هَذَا تَشْوِيقًا لَهُمْ إِلَيْهَا، وَحَثًّا لَهُمْ عَلَىٰ السَّعْيِ لَهَا سَعْيَهَا.

قَالُوا: وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يُونُس: ٢٥]. وَهَذَا حَثٌّ عَلَىٰ إِجَابَةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا، وَالْمُسَارَعَةِ فِي الْإِجَابَةِ.

❁ **وَالتَّحْقِيقُ أَنْ يُقَالَ:**

الْجَنَّةُ لَيْسَتِ اسْمًا لِمُجَرَّدِ الْأَشْجَارِ وَالْفَوَاكِهِ، وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَالْحُورِ الْعِينِ، وَالْأَنْهَارِ وَالْقُصُورِ. وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَغْلَطُونَ فِي مُسَمَّىٰ الْجَنَّةِ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ اسْمٌ لِدَارِ النَّعِيمِ الْمُطْلَقِ الْكَامِلِ، وَمِنْ أَعْظَمِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ التَّمَتُّعُ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ، وَسَمَاعِ كَلَامِهِ، وَقُرَّةُ الْعَيْنِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ وَبِرِضْوَانِهِ، فَلَا نِسْبَةَ لِلَذَّةِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ وَالْمَلْبُوسِ وَالصُّوَرِ، إِلَىٰ هَذِهِ اللَّذَّةِ أَبَدًا.

فَأَيْسَرُ يَسِيرٍ مِنْ رِضْوَانِهِ أَكْبَرُ مِنَ الْجِنَانِ وَمَا فِيهَا مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٢]، وَأَتَىٰ بِهِ مُنَكَّرًا فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ؛ أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ كَانَ مِنْ رِضَاهُ عَنْ عَبْدِهِ؛ فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْجَنَّةِ.

قَلِيلٌ مِنْكَ يُقْنِعُنِي وَلَكِنْ ... قَلِيلُكَ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلُ

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ - حَدِيثِ الرُّؤْيَةِ -: «فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ»، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ **«إِذَا تَجَلَّىٰ لَهُمْ، وَرَأَوْا وَجْهَهُ عِيَانًا؛ نَسُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، وَذَهَلُوا عَنْهُ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ»**. وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَمْرَ هَكَذَا، وَهُوَ أَجَلُّ مِمَّا يَخْطُرُ بِالْبَالِ، أَوْ يَدُورُ فِي

الْخَيَالِ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ فَوْزِ الْمُحِبِّينَ هُنَاكَ بِمَعِيَّةِ الْمُحَبِّ؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، وَلَا تَخْصِيصَ فِي هَذَا الْحُكْمِ، بَلْ هُوَ ثَابِتٌ شَاهِدًا وَغَائِبًا.

فَأَيُّ نَعِيمٍ، وَأَيُّ لَذَّةٍ، وَأَيُّ قُرَّةِ عَيْنٍ، وَأَيُّ فَوْزٍ يُدَانِي نَعِيمَ تِلْكَ الْمَعِيَّةِ وَلَذَّتَهَا، وَقُرَّةَ الْعَيْنِ بِهَا؟!

وَهَلْ فَوْقَ نَعِيمِ قُرَّةِ الْعَيْنِ بِمَعِيَّةِ الْمَحْبُوبِ، الَّذِي لَا شَيْءَ أَجَلُّ مِنْهُ، وَلَا أَكْمَلُ وَلَا أَجْمَلُ؛ قُرَّةُ عَيْنٍ الْبَتَّةَ؟!

وَهَذَا - وَاللهِ - هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي شَمَّرَ إِلَيْهِ الْمُحِبُّونَ، وَاللِّوَاءُ الَّذِي أَمَّهُ الْعَارِفُونَ، وَهُوَ رُوحُ مُسَمَّىٰ الْجَنَّةِ وَحَيَاتُهَا، وَبِهِ طَابَتِ الْجَنَّةُ، وَعَلَيْهِ قَامَتْ.

فَكَيْفَ يُقَالُ: لَا يُعْبَدُ اللهُ طَلَبًا لِجَنَّتِهِ، وَلَا خَوْفًا مِنْ نَارِهِ؟!

وَكَذَلِكَ النَّارُ - أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا -؛ فَإِنَّ لِأَرْبَابِهَا مِنْ عَذَابِ الْحِجَابِ عَنِ اللهِ وَإِهَانَتِهِ، وَغَضَبِهِ وَسَخَطِهِ، وَالْبُعْدِ عَنْهُ؛ أَعْظَمَ مِنَ الْتِهَابِ النَّارِ فِي أَجْسَامِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ، بَلِ الْتِهَابُ هَذِهِ النَّارِ فِي قُلُوبِهِمْ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ الْتِهَابَهَا فِي أَبْدَانِهِمْ، وَمِنْهَا سَرَتْ إِلَيْهَا.

فَمَطْلُوبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ: هُوَ الْجَنَّةُ، وَمَهْرَبُهُمْ مِنَ النَّارِ.

وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَمَقْصِدُ الْقَوْمِ: أَنَّ الْعَبْدَ يَعْبُدُ رَبَّهُ بِحَقِّ الْعُبُودِيَّةِ، وَالْعَبْدُ إِذَا طَلَبَ مِنْ سَيِّدِهِ أُجْرَةً عَلَىٰ خِدْمَتِهِ لَهُ كَانَ أَحْمَقَ، سَاقِطًا مِنْ عَيْنِ سَيِّدِهِ، إِنْ لَمْ يَسْتَوْجِبْ عُقُوبَتَهُ؛ إِذْ عُبُودِيَّتُهُ تَقْتَضِي خِدْمَتَهُ لَهُ، وَإِنَّمَا يَخْدِمُ بِالْأُجْرَةِ مَنْ لَا عُبُودِيَّةَ لِلْمَخْدُومِ عَلَيْهِ؛ إِمَّا أَنْ يَكُونَ حُرًّا فِي نَفْسِهِ، أَوْ عَبْدًا لِغَيْرِهِ.

وَأَمَّا مَنِ الْخَلْقُ عَبِيدُهُ حَقًّا، وَمِلْكُهُ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، لَيْسَ فِيهِمْ حُرٌّ وَلَا عَبْدٌ لِغَيْرِهِ؛ فَخِدْمَتُهُمْ لَهُ بِحَقِّ الْعُبُودِيَّةِ، فَاقْتِضَاؤُهُمْ لِلْأُجْرَةِ خُرُوجٌ عَنْ مَحْضِ الْعُبُودِيَّةِ.

وَهَذَا لَا يُنْكَرُ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَلَا يُقْبَلُ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَهُوَ مَوْضِعُ تَفْصِيلٍ وَتَمْيِيزٍ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ الْحَدِيثِ ذِكْرُ طُرُقِ الْخَلْقِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَبَيَّنَّا طَرِيقَ أَهْلِ الِاسْتِقَامَةِ»[1] اهـ.

---

(١) كِتَابُ «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»، لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ (صَفْحَةُ ٢/ ٥٤، ٦٢).

۞ نَعْبُدُ اللهَ سَعْيًا لِلْوُصُولِ إِلَى الْكَمَالِ الْبَشَرِيِّ:

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فَكَمَالُ الْمَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَحْقِيقًا لِلْعُبُودِيَّةِ ازْدَادَ كَمَالُهُ، وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ.

وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَخْرُجُ عَنِ الْعُبُودِيَّةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، أَوْ أَنَّ الْخُرُوجَ عَنْهَا أَكْمَلُ؛ فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْخَلْقِ وَأَضَلِّهِمْ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٦- ٢٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مَرْيَمُ: ٨٨-٩٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي الْمَسِيحِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٥٩].

[**قُلْتُ**: وَهَذَا هُوَ التَّكْرِيمُ الْحَقِيقِيُّ لِلْإِنْسَانِ؛ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ الْكَمَالِ

الْبَشَرِيِّ الَّذِي يَمْدَحُهُ فِيهِ خَالِقُ الْكَوْنِ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَأَمَّا أَنْ يُوصَفَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ؛ فَهَذَا يَضُرُّهُ - إِنْ رَضِيَ بِهِ - وَلَا يُفِيدُهُ، فَلَا يَنْتَفِعُ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِالْحَقِيقَةِ، وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ زَيْفٍ وَزُورٍ؛ فَإِنَّهُ لَا نَفْعَ فِيهِ، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرَّعْدُ: ١٧]].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ١٩، ٢٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٧٢، ١٧٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غَافِرٌ: ٦٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٧، ٣٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٢٠٥، ٢٠٦].

وَهَذَا وَنَحْوُهُ - مِمَّا فِيهِ وَصْفُ أَكَابِرِ الْمَخْلُوقَاتِ بِالْعِبَادَةِ وَذَمُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ -؛ مُتَعَدِّدٌ فِي الْقُرْآنِ»[1].

۞ الْفِرَارُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ يُؤَدِّي إِلَى التَّسَفُّلِ وَالِانْحِطَاطِ:

فَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُهُمْ، وَقَدْ مَرَّ بَيَانُ ذَلِكَ نَقْلًا عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ فِي فَصْلِ: «مَعْنَىٰ الْعِبَادَةِ»، تَحْتَ عُنْوَانِ: «الْعُبُودِيَّةِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا حَقِيقَةً كَوْنِيَّةً، وَكَوْنُهَا حَقِيقَةً وَمَطْلَبًا دِينِيًّا شَرْعِيًّا».

فَالْعَبْدُ إِنْ جَحَدَ حَقَّ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدٍ وَإِخْلَاصٍ لَهُ، وَمَحَبَّةٍ وَتَذَلُّلٍ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَخُضُوعٍ لِأَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابٍ لِنَوَاهِيهِ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَزِيدَهُ ذَلِكَ إِلَّا تَسَفُّلًا، وَكَمَا مَرَّ أَنَّهُ بِالْعِبَادَةِ يَصِلُ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ الْكَمَالِ الْبَشَرِيِّ؛ فَإِنَّهُ بِتَرْكِ الْعِبَادَةِ لَا يَزْدَادُ إِلَّا تَسَفُّلًا وَانْحِطَاطًا.

وَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ عَلَىٰ الْعَبْدِ الْبَارِّ بِسَيِّدِهِ وَالْعَبْدِ الْعَاقِّ الْآبِقِ، وَأَنَّ الْأَخِيرَ مَذْمُومٌ مُعَاقَبٌ فِي الدُّنْيَا؛ هَذَا فِي حَالِ كَوْنِهِ مَمْلُوكًا لِبَشَرٍ عُبُودِيَّةً وَرِقًّا،

---

(١) كِتَابُ «الْعُبُودِيَّةِ»، ط: الْمَكْتَبِ الْإِسْلَامِيِّ (صَفْحَةُ ٧٥ - ٧٧).

فَكَيْفَ لَوْ كَانَ الْكَلَامُ مُتَعَلِّقًا بِعُبُودِيَّةِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا؟! وَهِيَ عُبُودِيَّةٌ أَشْمَلُ وَأَكْمَلُ؛ فَمِلْكُ السَّادَةِ لِلرَّقِيقِ فِي الدُّنْيَا مِلْكًا جُزْئِيًّا لَيْسَ كُلِيًّا.

وَأَمَّا الرَّبُّ الْخَالِقُ جَلَّ وَعَلَا فَيَمْلِكُ السَّادَةَ وَمَا يَملِكُونَ مِنْ عَبِيدٍ وَخَدَمٍ، وَهُوَ مُوجِدُهُمْ مِنَ الْعَدَمِ وَرَازِقُهُمْ وَمُدَبِّرُ أُمُورَهُمْ؛ فَإِذَا مَا جُحِدَ حَقُّهُ وَفَضْلُهُ فَإِنَّ الْجَاحِدَ يَكُونُ أَشَدَّ بُغْضًا لَدَىٰ النَّاسِ مِمَّنْ يَجْحَدُ حَقَّ وَالِدَيْهِ اللَّذَيْنِ هُمَا سَبَبُ وُجُودِهِ فِي الْحَيَاةِ، فَكَيْفَ بِجَاحِدِ مَنْ خَلَقَهُ وَخَلَقَ آبَاءَهُ وَأَجْدَادَهُ إِلَىٰ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَولِ الْبَشرِ ؟!

الْفِرَارُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لَا يُؤَدِّي إِلَىٰ رِفْعَةِ مَنْزِلَةٍ، وَلَا إِلَىٰ عُلُوِّ شَأْنٍ فِي الدُّنْيَا، وَدُونَكَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةَ الَّذِينَ لَا يُوَقِّرُونَ رَبًّا، وَلَا يَعْرِفُونَ نَبِيًّا، وَلَا يَتَّبِعُونَ رَسُولًا، وَلَا يُقَدِّسُونَ كِتَابًا، وَإِنَّمَا يَعِيشُونَ كَمَا تَعِيشُ الْأَنْعَامُ، وَلِسَانُ مَقَالِهِمْ قَبْلَ لِسَانِ حَالِهِمْ يَقُولُ: الْأَرْضُ مَادَّةٌ، وَمَا الْحَيَاةُ إِلَّا أَرْحَامٌ تَدْفَعُ وَقُبُورٌ تَبْلَعُ، وَوَظِيفَتُكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَسْتَمْتِعَ قَدْرَ الْإِمْكَانِ بِوَسَائِلِ الْمُتْعَةِ الْمَادِّيَّةِ.

وَلَا حَرَامَ يُحَرِّمُونَهُ، وَلَا حَلَالَ يَتَحَرَّوْنَهُ، وَإِنَّمَا يَعِيشُونَ كَمَا تَعِيشُ الْأَنْعَامُ، وَالنَّارُ مَثْوًىٰ لَهُمْ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۞ وَٱلَّذِينَ

كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [مُحَمَّدٌ: ٧ - ١٢].

❀❀❀

فَصْلٌ فِي أَنَّ النُّفُوسَ الْجَاهِلَةَ تَظُنُّ أَنَّ لَهَا بِعِبَادَتِهَا لِرَبِّهَا حَقًّا عَلَيْهِ

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ الْجَاهِلِيَّةَ تَتَخَيَّلُ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِعِبَادَتِهِ وَعِلْمِهِ يَصِيرُ لَهُ عَلَىٰ اللهِ حَقٌّ مِنْ جِنْسِ مَا يَصِيرُ لِلْمَخْلُوقِ عَلَىٰ الْمَخْلُوقِ.

كَالَّذِينَ يَخْدُمُونَ مُلُوكَهُمْ وَمُلَّاكَهُمْ فَيَجْلِبُونَ لَهُمْ مَنْفَعَةً، وَيَدْفَعُونَ عَنْهُمْ مَضَرَّةً، وَيَبْقَىٰ أَحَدُهُمْ يَتَقَاضَىٰ الْعِوَضَ وَالْمُجَازَاةَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَيَقُولُ لَهُ عِنْدَ جَفَاءٍ أَوْ إِعْرَاضٍ يَرَاهُ مِنْهُ: أَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا؟ يَمُنُّ عَلَيْهِ بِمَا يَفْعَلُهُ مَعَهُ، وَإِنْ لَمْ يَقُلْهُ بِلِسَانِهِ كَانَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ.

وَتَخَيُّلُ مِثْلِ هَذَا فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ جَهْلِ الْإِنْسَانِ وَظُلْمِهِ؛ وَلِهَذَا بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْخَلْقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٧].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ

لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٦]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزُّمَرُ: ٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النَّمْلُ: ٤٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ٧، ٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٧٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ٩٧].

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ الْمَانُّ بِالْعَمَلِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الْحُجُرَاتُ: ١٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الْحُجُرَاتُ: ٧، ٨].

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ: «يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا أُبَالِي؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ».

وَبَيْنَ الْخَالِقِ -تَعَالَىٰ- وَالْمَخْلُوقِ مِنَ الْفُرُوقِ مَا لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ مَنْ لَهُ أَدْنَىٰ بَصِيرَةٍ:

مِنْهَا: أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَىٰ غَنِيٌّ بِنَفْسِهِ عَمَّا سِوَاهُ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ مُفْتَقِرًا إِلَىٰ غَيْرِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَالْمُلُوكُ وَسَادَةُ الْعَبِيدِ مُحْتَاجُونَ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ حَاجَةً ضَرُورِيَّةً.

وَمِنْهَا: أَنَّ الرَّبَّ -تَعَالَىٰ- وَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَيَرْضَىٰ

وَيَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِينَ؛ فَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ ذَلِكَ وَيُيَسِّرُهُ، فَلَمْ يَحْصُلْ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ إِلَّا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَهَذَا ظَاهِرٌ عَلَىٰ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِالْإِيمَانِ، بِخِلَافِ الْقَدَرِيَّةِ، وَالْمَخْلُوقُ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ مَا يُحِبُّهُ بِفِعْلِ غَيْرِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الرَّبَّ - تَعَالَىٰ - أَمَرَ الْعِبَادَ بِمَا يُصْلِحُهُمْ، وَنَهَاهُمْ عَمَّا يُفْسِدُهُمْ.

كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَنْهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ بُخْلًا عَلَيْهِمْ؛ بَلْ أَمَرَهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَنَهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يَأْمُرُ غَيْرَهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَيَنْهَاهُ عَمَّا يَنْهَاهُ بُخْلًا عَلَيْهِ.

وَهَذَا أَيْضًا ظَاهِرٌ عَلَىٰ مَذْهَبِ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ، الَّذِينَ يُثْبِتُونَ حِكْمَتَهُ وَرَحْمَتَهُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ إِلَّا بِخَيْرٍ يَنْفَعُهُمْ، وَلَمْ يَنْهَهُمْ إِلَّا عَنْ شَرٍّ يَضُرُّهُمْ؛ بِخِلَافِ الْمُجْبَرَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ قَدْ يَأْمُرُهُمْ بِمَا يَضُرُّهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يَنْفَعُهُمْ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْعِمُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ، وَهُوَ

الْمُنْعِمُ بِالْقُدْرَةِ وَالْحَوَاسِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا بِهِ يَحْصُلُ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَهُوَ الْهَادِي لِعِبَادِهِ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٤٣]، وَلَيْسَ يَقْدِرُ الْمَخْلُوقُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَمِنْهَا: أَنَّ نِعَمَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُحْصَىٰ، فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ الْعِبَادَةَ جَزَاءُ النِّعْمَةِ؛ لَمْ تَقُمِ الْعِبَادَةُ بِشُكْرِ قَلِيلٍ مِنْهَا، فَكَيْفَ وَالْعِبَادَةُ مِنْ نِعْمَتِهِ أَيْضًا؟!

وَمِنْهَا: أَنَّ الْعِبَادَ لَا يَزَالُونَ مُقَصِّرِينَ مُحْتَاجِينَ إِلَىٰ عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ؛ فَلَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ ذُنُوبٌ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَىٰ مَغْفِرَةِ اللهِ لَهَا: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فَاطِرٌ: ٤٥].

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**» لَا يُنَاقِضُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤﴾ [الْأَحْقَافُ: ١٤]؛ فَإِنَّ الْمَنْفِيَّ نُفِيَ بِبَاءِ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَاوَضَةِ، كَمَا يُقَالُ: بِعْتُ هَذَا بِهَذَا. وَمَا أُثْبِتَ أُثْبِتَ بِبَاءِ السَّبَبِ؛ فَالْعَمَلُ لَا يُقَابِلُ الْجَزَاءَ وَإِنْ كَانَ سَبَبًا لِلْجَزَاءِ.

وَلِهَذَا مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ قَامَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَغْفِرَةِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ وَعَفْوِهِ؛ فَهُوَ ضَالٌّ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**. قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ** - وَرُوِيَ: **بِمَغْفِرَتِهِ** -».

وَمِنْ هَذَا أَيْضًا: الْحَدِيثُ الَّذِي فِي «السُّنَنِ»؛ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ؛ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ**» الْحَدِيثُ»[١] اهـ.

❁❁❁

(١) «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَىٰ»، لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ، (صَحِيفَةُ ١/ ٢١٤-٢١٧).

فَصْلٌ فِي أَقْسَامِ النَّاسِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا

❁ أَحَدُهُمْ:

مَنْ لَا يُرِيدُ رَبَّهُ وَلَا يُرِيدُ ثَوَابَهُ: فَهَؤُلَاءِ أَعْدَاؤُهُ حقًّا، وَهُمْ أَهْلُ الْعَذَابِ الدَّائِمِ. وَعَدَمُ إِرَادَتِهِمْ لِثَوَابِهِ؛ إِمَّا لِعَدَمِ تَصْدِيقِهِمْ بِهِ، وَإِمَّا لِإِيثَارِ الْعَاجِلِ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ سَخَطُهُ.

❁ وَالْقِسْمُ الثَّانِي:

مَنْ يُرِيدُهُ وَيُرِيدُ ثَوَابَهُ: وَهَؤُلَاءِ خَوَاصُّ خَلْقِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الْأَحْزَابُ: ٢٩]، فَهَذَا خِطَابُهُ لِخَيْرِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، أَزْوَاجِ نَبِيِّهِ ﷺ. وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٩]، فَأَخْبَرَ أَنَّ السَّعْيَ الْمَشْكُورَ: سَعْيُ

مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ.

وَأَصْرَحُ مِنْهَا قَوْلُهُ لِخَوَاصِّ أَوْلِيَائِهِ - وَهُمْ أَصْحَابُ نَبِيِّهِ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ - فِي يَوْمِ أُحُدٍ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٥٢]؛ فَقَسَمَهُمْ إِلَىٰ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا.

وَقَدْ غَلِطَ مَنْ قَالَ: فَأَيْنَ مَنْ يُرِيدُ اللهَ؟ فَإِنَّ إِرَادَةَ الْآخِرَةِ عِبَارَةٌ عَنْ إِرَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَثَوَابِهِ؛ فَإِرَادَةُ الثَّوَابِ لَا تُنَافِي إِرَادَةَ اللهِ.

۞ وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ:

مَنْ يُرِيدُ مِنَ اللهِ، وَلَا يُرِيدُ اللهَ: فَهَذَا نَاقِصٌ غَايَةَ النَّقْصِ، وَهُوَ حَالُ الْجَاهِلِ بِرَبِّهِ، الَّذِي سَمِعَ: أَنَّ ثَمَّ جَنَّةً وَنَارًا. فَلَيْسَ فِي قَلْبِهِ غَيْرُ إِرَادَةِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ الْمَخْلُوقِ، لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ سِوَاهُ الْبَتَّةَ، بَلْ هَذَا حَالُ أَكْثَرِ الْمُتَكَلِّمِينَ، الْمُنْكِرِينَ رُؤْيَةَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالتَّلَذُّذَ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَسَمَاعَ كَلَامِهِ وَحُبَّهُ، وَالْمُنْكِرِينَ عَلَىٰ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ. وَهُمْ عَبِيدُ الْأُجْرَةِ الْمَحْضَةِ؛ فَهَؤُلَاءِ لَا يُرِيدُونَ اللهَ تَعَالَىٰ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَرِّحُ بِأَنَّ إِرَادَةَ اللهِ مُحَالٌ.

قَالُوا: لِأَنَّ الْإِرَادَةَ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالْحَادِثِ، فَالْقَدِيمُ لَا يُرَادُ. فَهَؤُلَاءِ

مُنْكِرُونَ لِإِرَادَةِ اللهِ غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَأَعْلَىٰ الْإِرَادَةِ عِنْدَهُمْ: إِرَادَةُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَالنِّكَاحِ وَاللِّبَاسِ فِي الْجَنَّةِ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ. فَهَؤُلَاءِ فِي شِقٍّ، وَأُولَئِكَ - الَّذِينَ قَالُوا: لَمْ نَعْبُدْهُ طَلَبًا لِجَنَّتِهِ، وَلَا هَرَبًا مِنْ نَارِهِ - فِي شِقٍّ. وَهُمَا طَرَفَا نَقِيضٍ، بَيْنَهُمَا أَعْظَمُ مِنْ بُعْدِ الْمَشْرِقَيْنِ.

وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَكْثَفِ النَّاسِ حِجَابًا، وَأَغْلَظِهِمْ طِبَاعًا، وَأَقْسَاهُمْ قُلُوبًا، وَأَبْعَدِهِمْ عَنْ رُوحِ الْمَحَبَّةِ وَالتَّأَلُّهِ، وَنَعِيمِ الْأَرْوَاحِ وَالْقُلُوبِ، وَهُمْ يُكَفِّرُونَ أَصْحَابَ الْمَحَبَّةِ وَالشَّوْقِ إِلَىٰ اللهِ وَالتَّلَذُّذِ بِحُبِّهِ، وَالتَّصْدِيقِ بِلَذَّةِ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ، وَسَمَاعِ كَلَامِهِ مِنْهُ بِلَا وَاسِطَةٍ.

وَأُولَئِكَ لَا يَعُدُّونَهُمْ مِنَ الْبَشَرِ إِلَّا بِالصُّورَةِ، وَمَرْتَبَتُهُمْ عِنْدَهُمْ قَرِيبَةٌ مِنْ مَرْتَبَةِ الْجَمَادِ وَالْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ، وَهُمْ عِنْدَهُمْ فِي حِجَابٍ كَثِيفٍ عَنْ مَعْرِفَةِ نُفُوسِهِمْ وَكَمَالِهَا، وَمَعْرِفَةِ مَعْبُودِهِمْ وَسِرِّ عُبُودِيَّتِهِ.

وَحَالُ الطَّائِفَتَيْنِ عَجَبٌ لِمَنِ اطَّلَعَ عَلَيْهِ.

۞ **وَالْقِسْمُ الرَّابِعُ - وَهُوَ مُحَالٌ -:**

أَنْ يُرِيدَ اللهَ، وَلَا يُرِيدَ مِنْهُ: فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ أَنَّهُ مَطْلُوبُهُمْ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ فَفِي سَيْرِهِ عِلَّةٌ، وَأَنَّ الْعَارِفَ يَنْتَهِي إِلَىٰ هَذَا الْمَقَامِ؛ وَهُوَ أَنْ

يَكُونَ اللهُ مُرَادَهُ، وَلَا يُرِيدُ مِنْهُ شَيْئًا. كَمَا يُحْكَىٰ عَنْ أَبِي يَزِيدَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ لِي: مَا تُرِيدُ؟ فَقُلْتُ: أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ.

وَهَذَا فِي التَّحْقِيقِ عَيْنُ الْمُحَالِ الْمُمْتَنِعِ؛ عَقْلًا وَفِطْرَةً، وَحِسًّا وَشَرْعًا. **فَإِنَّ الْإِرَادَةَ مِنْ لَوَازِمِ الْحَيِّ.**

وَإِنَّمَا يَعْرِضُ لَهُ التَّجَرُّدُ عَنْهَا بِالْغَيْبَةِ عَنْ عَقْلِهِ وَحِسِّهِ؛ كَالسُّكْرِ وَالْإِغْمَاءِ وَالنَّوْمِ.

فَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ التَّجْرِيدَ عَنْ إِرَادَةِ مَا سِوَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تُزَاحِمُ إِرَادَتُهَا إِرَادَتَهُ. **أَفَلَيْسَ صَاحِبُ هَذَا الْمَقَامِ مُرِيدًا لِقُرْبِهِ وَرِضَاهُ، وَدَوَامِ مُرَاقَبَتِهِ، وَالْحُضُورِ مَعَهُ؟ وَأَيُّ إِرَادَةٍ فَوْقَ هَذِهِ؟!**

نَعَمْ، قَدْ زَهِدَ فِي مُرَادٍ لِمُرَادٍ هُوَ أَجَلُّ مِنْهُ وَأَعْلَىٰ، فَلَمْ يَخْرُجْ عَنِ الْإِرَادَةِ.

وَإِنَّمَا انْتَقَلَ مِنْ إِرَادَةٍ إِلَىٰ إِرَادَةٍ، وَمِنْ مُرَادٍ إِلَىٰ مُرَادٍ. وَأَمَّا خُلُوُّهُ عَنْ صِفَةِ الْإِرَادَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، مَعَ حُضُورِ عَقْلِهِ وَحِسِّهِ؛ فَمُحَالٌ.

وَإِنْ حَاكَمَنَا فِي ذَلِكَ مُحَاكِمٌ إِلَىٰ ذَوْقٍ مُصْطَلِمٍ مَأْخُوذٍ عَنْ نَفْسِهِ، فَانٍ عَنْ عَوَالِمِهَا؛ لَمْ نُنْكِرْ ذَلِكَ، لَكِنَّ هَذِهِ حَالٌ عَارِضَةٌ غَيْرُ دَائِمَةٍ، وَلَا هِيَ غَايَةٌ مَطْلُوبَةٌ لِلسَّالِكِينَ، وَلَا مَقْدُورَةٌ لِلْبَشَرِ، وَلَا مَأْمُورٌ بِهَا، وَلَا هِيَ أَعْلَىٰ

الْمَقَامَاتِ فَيُؤْمَرُ بِاكْتِسَابِ أَسْبَابِهَا. فَهَذَا فَصْلُ الْخِطَابِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ»[١] اهـ.

❁❁❁

(١) كِتَابُ «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»، لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ (صَفْحَةُ ٢/ ٦٢-٦٤).

فَصْلٌ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦]

قَالَ الإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ تَحْتَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ:

«... فَقَدْ صَرَّحَ تَعَالَىٰ فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِيَبْتَلِيَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَأَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِيَجْزِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ.

قَالَ تَعَالَىٰ فِي أَوَّلِ «سُورَةِ هُودٍ»: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، ثُمَّ بَيَّنَ الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هُودٌ: ٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي أَوَّلِ «سُورَةِ الْمُلْكِ»: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الْمُلْكُ: ٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي أَوَّلِ «سُورَةِ الْكَهْفِ»: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الْكَهْفُ: ٧].

فَتَصْرِيحُهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ بِأَنَّ حِكْمَةَ خَلْقِهِ لِلْخَلْقِ، هِيَ ابْتِلَاؤُهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا؛ يُفَسِّرُ قَوْلَهُ: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، وَخَيْرُ مَا يُفَسَّرُ بِهِ الْقُرْآنُ؛ الْقُرْآنُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ نَتِيجَةَ الْعَمَلِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِجَزَاءِ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ؛ وَلِذَا صَرَّحَ تَعَالَىٰ بِأَنَّ حِكْمَةَ خَلْقِهِمْ أَوَّلًا وَبَعْثِهِمْ ثَانِيًا؛ هُوَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي أَوَّلِ «يُونُسَ»: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يُونُسُ: ٤]، وَقَوْلِهِ فِي «النَّجْمِ»: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١)﴾ [النَّجْمُ: ٣١].

وَقَدْ أَنْكَرَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ حُسْبَانَهُ وَظَنَّهُ أَنَّهُ يُتْرَكُ سُدًىٰ؛ أَيْ مُهْمَلًا، لَمْ يُؤْمَرْ وَلَمْ يُنْهَ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ مَا نَقَلَهُ مِنْ طَوْرٍ إِلَىٰ طَوْرٍ حَتَّىٰ أَوْجَدَهُ إِلَّا لِيَبْعَثَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ أَيْ وَيُجَازِيَهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)﴾ [الْقِيَامَةُ: ٣٦، ٣٧]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن

يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القِيَامَةُ: ٤٠].

وَالْبَرَاهِينُ عَلَىٰ الْبَعْثِ دَالَّةٌ عَلَىٰ الْجَزَاءِ، وَقَدْ نَزَّهَ تَعَالَىٰ نَفْسَهُ عَنْ هَذَا الظَّنِّ الَّذِي ظَنَّهُ الْكُفَّارُ بِهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَبْعَثُ الْخَلْقَ وَلَا يُجَازِيهِمْ، مُنْكِرًا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ١١٥، ١١٦].

وَقَدْ قَدَّمْنَا الْآيَاتِ الْمُوَضِّحَةَ لِهَذَا فِي أَوَّلِ «سُورَةِ الْأَحْقَافِ» فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الْأَحْقَافُ: ٣].

❁ تَنْبِيهٌ:

اعْلَمْ أَنَّ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَىٰ حِكْمَةِ خَلْقِ اللهِ لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَهْلِهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا؛ قَدْ يَظُنُّ غَيْرُ الْمُتَأَمِّلِ أَنَّ بَيْنَهُمَا اخْتِلَافًا، وَالْوَاقِعُ خِلَافُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللهِ لَا يُخَالِفُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

وَإِيضَاحُ ذَلِكَ: أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ذَكَرَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ أَنَّ حِكْمَةَ خَلْقِهِ لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ هِيَ إِعْلَامُ خَلْقِهِ بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ «الطَّلَاقِ»: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ

وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطَّلَاقُ: ١٢].

وَذَكَرَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ كَوْنَهُ هُوَ الْمَعْبُودَ وَحْدَهُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٦٣]، ثُمَّ أَقَامَ الْبُرْهَانَ عَلَىٰ أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ بِقَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٦٤].

وَلَمَّا قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ بَيَّنَ أَنَّ خَلْقَهُمْ بُرْهَانٌ عَلَىٰ أَنَّهُ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ بِقَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢١] الْآيَةُ.

وَالِاسْتِدْلَالُ عَلَىٰ أَنَّ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ بِكَوْنِهِ هُوَ الْخَالِقُ؛ كَثِيرٌ جِدًّا فِي الْقُرْآنِ، وَقَدْ أَوْضَحْنَا الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ «سُورَةِ الْفُرْقَانِ» فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [الْفُرْقَانُ: ٢، ٣] الْآيَةُ، وَفِي «سُورَةِ الرَّعْدِ» فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرَّعْدُ: ١٦] الْآيَةُ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاضِعِ.

وَذَكَرَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ: أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَبْتَلِيَ النَّاسَ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُودٌ: ٧].

وَذَكَرَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ: أَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِيَجْزِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يُونُسُ: ٤] الْآيَةُ.

وَذَكَرَ فِي آيَةِ «الذَّارِيَاتِ» هَذِهِ: أَنَّهُ مَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوهُ.

فَقَدْ يَظُنُّ غَيْرُ الْعَالِمِ أَنَّ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ اخْتِلَافًا، مَعَ أَنَّهَا لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهَا؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ الْمَذْكُورَ فِيهَا كُلِّهَا رَاجِعٌ إِلَىٰ شَيْءٍ وَاحِدٍ؛ وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ وَطَاعَتُهُ، وَمَعْرِفَةُ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ؛ فَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطَّلَاقُ: ١٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢١] رَاجِعٌ إِلَىٰ شَيْءٍ وَاحِدٍ؛ هُوَ الْعِلْمُ بِاللهِ؛ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ أَطَاعَهُ وَوَحَّدَهُ.

وَهَذَا الْعِلْمُ يُعَلِّمُهُمُ اللهُ إِيَّاهُ وَيُرْسِلُ لَهُمُ الرُّسُلَ بِمُقْتَضَاهُ؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الْأَنْفَالُ: ٤٢]، فَالتَّكْلِيفُ بَعْدَ الْعِلْمِ، وَالْجَزَاءُ بَعْدَ التَّكْلِيفِ.

فَظَهَرَ بِهَذَا اتِّفَاقُ الْآيَاتِ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَكْلِيفٍ، وَهُوَ الِابْتِلَاءُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَاتِ، وَالتَّكْلِيفُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ عِلْمٍ؛ وَلِذَا دَلَّ بَعْضُ الْآيَاتِ عَلَىٰ أَنَّ حِكْمَةَ الْخَلْقِ لِلْمَخْلُوقَاتِ هِيَ الْعِلْمُ بِالْخَالِقِ، وَدَلَّ بَعْضُهَا عَلَىٰ أَنَّهَا الِابْتِلَاءُ، وَدَلَّ بَعْضُهَا عَلَىٰ أَنَّهَا الْجَزَاءُ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ حَقٌّ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، وَبَعْضُهُ مُرَتَّبٌ عَلَىٰ بَعْضٍ.

وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَىٰ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فِي كِتَابِنَا «دَفْعِ إِيهَامِ الِاضْطِرَابِ عَنْ آيَاتِ الْكِتَابِ» فِي «سُورَةِ هُودٍ» فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هُودٌ: ١١٩]، وَبَيَّنَّا هُنَاكَ أَنَّ الْإِرَادَةَ الْمَدْلُولَ عَلَيْهَا بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾؛ أَيْ: وَلِأَجْلِ الِاخْتِلَافِ إِلَىٰ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ خَلَقَهُمْ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الْأَعْرَافُ: ١٧٩]؛ إِرَادَةٌ كَوْنِيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ، وَأَنَّ الْإِرَادَةَ الْمَدْلُولَ عَلَيْهَا بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إِرَادَةٌ دِينِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ.

وَبَيَّنَّا هُنَاكَ أَيْضًا الْأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ مُنْقَسِمًا إِلَىٰ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، وَأَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ وَقَدَّرَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التَّغَابُنُ: ٢]، وَقَالَ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ

فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشُّورَىٰ: ٧]»[١] اهـ.

وَقَالَ الإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الآيَةِ:

«﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦-٥٨]:

هَذِهِ الْغَايَةُ الَّتِي خَلَقَ اللهُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ لَهَا، وَبَعَثَ جَمِيعَ الرُّسُلِ يَدْعُونَ إِلَيْهَا، وَهِيَ عِبَادَتُهُ الْمُتَضَمِّنَةُ لِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالإِنَابَةِ إِلَيْهِ وَالإِقْبَالِ عَلَيْهِ، وَالإِعْرَاضِ عَمَّا سِوَاهُ؛ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ مَعْرِفَةَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّ تَمَامَ الْعِبَادَةِ مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ، بَلْ كُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ مَعْرِفَةً لِرَبِّهِ كَانَتْ عِبَادَتُهُ أَكْمَلَ؛ فَهَذَا الَّذِي خَلَقَ اللهُ الْمُكَلَّفِينَ لِأَجْلِهِ.

فَمَا خَلَقَهُمْ لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِمْ؛ فَمَا يُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ، وَمَا يُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُوهُ، تَعَالَىٰ اللهُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي عَنِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ أَحَدٍ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَإِنَّمَا جَمِيعُ الْخَلْقِ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ، فِي جَمِيعِ حَوَائِجِهِمْ وَمَطَالِبِهِمْ الضَّرُورِيَّةِ وَغَيْرِهَا.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾؛ أَيْ: كَثِيرُ الرِّزْقِ، الَّذِي مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي

(١) «أَضْوَاءُ الْبَيَانِ»، ط: دَارِ عَالِمِ الْفَوَائِدِ، الْمُجَلَّدُ السَّابِعُ، (صَفْحَةُ ٧١٢ – ٧١٨).

الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزْقُهَا، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا.

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾؛ **أَي**: الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ وَالْقُدْرَةُ كُلُّهَا، الَّذِي أَوْجَدَ بِهَا الْأَجْرَامَ الْعَظِيمَةَ، السُّفْلِيَّةَ وَالْعُلْوِيَّةَ، وَبِهَا تَصَرَّفَ فِي الظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ، وَنَفَذَتْ مَشِيئَتُهُ فِي جَمِيعِ الْبَرِيَّاتِ، فَـ«**مَا شَاءَ اللهُ كَان، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ**»، وَلَا يُعْجِزُهُ هَارِبٌ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ سُلْطَانِهِ أَحَدٌ.

وَمِنْ قُوَّتِهِ أَنَّهُ أَوْصَلَ رِزْقَهُ إِلَىٰ جَمِيعِ الْعَالَمِ، وَمِنْ قُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ أَنَّهُ يَبْعَثُ الْأَمْوَاتَ بَعْدَمَا مَزَّقَهُمُ الْبِلَىٰ، وَعَصَفَتْ بِتُرَابِهِمُ الرِّيَاحُ، وَابْتَلَعَتْهُمُ الطُّيُورُ وَالسِّبَاعُ، وَتَفَرَّقُوا وَتَمَزَّقُوا فِي مَهَامِهِ الْقِفَارِ، وَلُجَجِ الْبِحَارِ؛ فَلَا يَفُوتُهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَيَعْلَمُ مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ، فَسُبْحَانَ الْقَوِيِّ الْمَتِينِ».

❁❁❁

مَعْنَى اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ -: عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦]؛ فَإِنْ كَانَتِ اللَّامُ لِلصَّيْرُورَةِ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ فَمَا صَارَ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتِ اللَّامُ لِلْغَرَضِ؛ لَزِمَ أَنْ لَا يَتَخَلَّفَ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ التَّخَلُّصُ مِنْ هَذَا الْمَضِيقِ؟

فَأَجَابَ - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ - قَائِلاً:

«**فَيُقَالُ**: هَذِهِ اللَّامُ لَيْسَتْ هِيَ اللَّامَ الَّتِي يُسَمِّيهَا النُّحَاةُ «لَامَ الْعَاقِبَةِ وَالصَّيْرُورَةِ»، وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ أَحَدٌ هُنَا كَمَا ذَكَرَهُ السَّائِلُ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَصِرْ، إِلَّا عَلَىٰ قَوْلِ مَنْ يُفَسِّرُ ﴿يَعْبُدُونِ﴾ بِمَعْنَىٰ: يَعْرِفُونِ؛ يَعْنِي: الْمَعْرِفَةَ الَّتِي أُمِرَ بِهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ؛ لَكِنَّ هَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ، وَإِنَّمَا زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هُودٌ: ١١٩] الَّتِي فِي آخِرِ «سُورَةِ هُودٍ».

فَإِنَّ بَعْضَ الْقَدَرِيَّةِ زَعَمَ أَنَّ تِلْكَ اللَّامَ لَامُ الْعَاقِبَةِ وَالصَّيْرُورَةِ؛ أَيْ:

صَارَتْ عَاقِبَتُهُمْ إِلَىٰ الرَّحْمَةِ وَإِلَىٰ الِاخْتِلَافِ وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ الْخَالِقُ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ [القَصَصُ: ٨]، وَقَوْلِ الشَّاعِرِ: لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ.

وَهَذَا أَيْضًا ضَعِيفٌ هُنَا؛ لِأَنَّ لَامَ الْعَاقِبَةِ إِنَّمَا تَجِيءُ فِي حَقِّ مَنْ لَا يَكُونُ عَالِمًا بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَصَايِرِهَا؛ فَيَفْعَلُ الْفِعْلَ الَّذِي لَهُ عَاقِبَةٌ لَا يَعْلَمُهَا؛ كَآلِ فِرْعَوْنَ، فَأَمَّا مَنْ يَكُونُ عَالِمًا بِعَوَاقِبِ الْأَفْعَالِ وَمَصَايِرِهَا؛ فَلَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا لَهُ عَاقِبَةٌ لَا يَعْلَمُ عَاقِبَتَهُ، وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ فِعْلَهُ لَهُ عَاقِبَةٌ فَلَا يَقْصِدُ بِفِعْلِهِ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ تَمَنٍّ وَلَيْسَ بِإِرَادَةٍ.

وَأَمَّا اللَّامُ فَهِيَ اللَّامُ الْمَعْرُوفَةُ؛ وَهِيَ «لَامُ كَيْ، وَلَامُ التَّعْلِيلِ» الَّتِي إِذَا حُذِفَتِ انْتَصَبَ الْمَصْدَرُ الْمَجْرُورُ بِهَا عَلَىٰ الْمَفْعُولِ لَهُ، وَتُسَمَّىٰ: «الْعِلَّةَ الْغَائِيَةَ»، وَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ فِي الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ، مُتَأَخِّرَةٌ فِي الْوُجُودِ وَالْحُصُولِ، وَهَذِهِ الْعِلَّةُ هِيَ الْمُرَادُ الْمَطْلُوبُ الْمَقْصُودُ مِنَ الْفِعْلِ، لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الْإِرَادَةَ فِي كِتَابِ اللهِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ: وَهِيَ الْإِرَادَةُ الْمُسْتَلْزِمَةُ لِوُقُوعِ الْمُرَادِ، الَّتِي يُقَالُ فِيهَا: «**مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ**»، وَهَذِهِ الْإِرَادَةُ فِي مِثْلِ

قَوْلِهِ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٢٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ [هُودٌ: ٣٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢٥٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [الْكَهْفُ: ٣٩]، وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ.

وَهَٰذِهِ الْإِرَادَةُ هِيَ مَدْلُولُ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هُودٌ: ١١٨، ١١٩].

قَالَ السَّلَفُ: خَلَقَ فَرِيقًا لِلِاخْتِلَافِ وَفَرِيقًا لِلرَّحْمَةِ. وَلَمَّا كَانَتِ الرَّحْمَةُ هُنَا الْإِرَادَةَ وَهُنَاكَ كَوْنِيَّةً؛ وَقَعَ الْمُرَادُ بِهَا؛ فَقَوْمٌ اخْتَلَفُوا، وَقَوْمٌ رُحِمُوا.

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَهُوَ الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ: وَهِيَ مَحَبَّةُ الْمُرَادِ وَرِضَاهُ، وَمَحَبَّةُ أَهْلِهِ وَالرِّضَا عَنْهُمْ، وَجَزَاهُمْ بِالْحُسْنَىٰ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٨٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن

قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٦ – ٢٨].

فَهَذِهِ الْإِرَادَةُ لَا تَسْتَلْزِمُ وُقُوعَ الْمُرَادِ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنَ الْإِرَادَةِ؛ **وَلِهَذَا كَانَتِ الْأَقْسَامُ أَرْبَعَةً:**

أَحَدُهَا: مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ الْإِرَادَتَانِ [أَيِ: الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ وَالْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ]، وَهُوَ مَا وَقَعَ فِي الْوُجُودِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ أَرَادَهُ إِرَادَةَ دِينٍ وَشَرْعٍ؛ فَأَمَرَ بِهِ وَأَحَبَّهُ وَرَضِيَهُ، وَأَرَادَهُ إِرَادَةَ كَوْنٍ فَوَقَعَ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا كَانَ.

وَالثَّانِي: مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ فَقَطْ: وَهُوَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَعَصَىٰ ذَلِكَ الْأَمْرَ الْكُفَّارُ وَالْفُجَّارُ؛ فَتِلْكَ كُلُّهَا إِرَادَةُ دِينٍ وَهُوَ يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا لَوْ وَقَعَتْ وَلَوْ لَمْ تَقَعْ.

وَالثَّالِثُ: مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ الْإِرَادَةُ الْكَوْنِيَّةُ فَقَطْ: وَهُوَ مَا قَدَّرَهُ وَشَاءَهُ مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي لَمْ يَأْمُرْ بِهَا: كَالْمُبَاحَاتِ وَالْمَعَاصِي؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِهَا، وَلَمْ يَرْضَهَا، وَلَمْ يُحِبَّهَا؛ إِذْ هُوَ ﴿لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٢٨]، وَ﴿لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَرُ: ٧]، وَلَوْلَا مَشِيئَتُهُ وَقُدْرَتُهُ وَخَلْقُهُ لَهَا لَمَا كَانَتْ وَلَمَا

وُجِدَتْ؛ فَإِنَّهُ «**مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ**».

وَالرَّابِعُ: مَا لَمْ تَتَعَلَّقْ بِهِ هَذِهِ الْإِرَادَةُ وَلَا هَذِهِ: فَهَذَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُبَاحَاتِ وَالْمَعَاصِي.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمُقْتَضَى اللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦] هَذِهِ الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ، وَهَذِهِ قَدْ يَقَعُ مُرَادُهَا وَقَدْ لَا يَقَعُ.

وَالْمَعْنَى: **أَنَّ الْغَايَةَ الَّتِي يُحِبُّ لَهُمْ وَيَرْضَى لَهُمْ، وَالَّتِي أُمِرُوا بِفِعْلِهَا؛ هِيَ الْعِبَادَةُ، فَهُوَ الْعَمَلُ الَّذِي خَلَقَ الْعِبَادَ لَهُ: أَيْ هُوَ الَّذِي يُحَصِّلُ كَمَالَهُمْ وَصَلَاحَهُمُ الَّذِي بِهِ يَكُونُونَ مَرْضِيِّينَ مَحْبُوبِينَ، فَمَنْ لَمْ تَحْصُلْ مِنْهُ هَذِهِ الْغَايَةُ؛ كَانَ عَادِمًا لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى**، وَيُرَادُ لَهُ الْإِرَادَةُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي فِيهَا سَعَادَتُهُ وَنَجَاتُهُ، وَعَادِمًا لِكَمَالِهِ وَصَلَاحِهِ الْعَدَمَ الْمُسْتَلْزِمَ فَسَادَهُ وَعَذَابَهُ. وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: الْعِبَادَةُ هِيَ الْعَزِيمَةُ [أَوِ] الْفِطْرِيَّةُ: فَقَوْلَانِ ضَعِيفَانِ فَاسِدَانِ، يَظْهَرُ فَسَادُهُمَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ»[1].

❀❀❀

(١) «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى»، لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ (٨/ ١٨٧ – ١٩٠).

خَاتِمَةٌ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَرُ: ٦١ - ٦٧].

الْفِهْرِسْتُ

الْفِهْرِسْتُ

من إصداراتنا

اقرأ في هذا الكتاب

إِنَّ اللَّه لمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ

وَلَا نَهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ بُخْلًا بِهِ عَلَيْهِمْ

بَلْ أَمَرَهُمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ

وَنَهَاهُمْ عَمَّا فِيهِ فَسَادُهُمْ

فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ

المؤلف